الكهنوت المسيحي

للقديس يوحنا ذهبي الفم



تقديم

إليك أيها القارئ المحبوب... نقدم هذا الكتاب، سواء كنت كاهنًا او خادمًا أو قارئًا عادياً... فهذا الكتاب إليك، إليك وحدك... إنه كتاب {الكهنوت المسيحي}، كتبه القديس العظيم يوحنا ذهبي الفم في ستة كتب، ووجهه إلى صديقه الحميم باسيليوس، عندما هرب الأول من محاولة تنصيبه لخدمة الكهنوت، بعد ان كانا قد اتفقا سويًا أن ينالا هذه النعمة معًا... وتناول فيه موضوع الكهنوت من جهة وظيفته وكرامته ومسئولياته... لذا يعتبره بعض الآباء **أعظم ما كتبه ذهبي الفم،** ويصفه البعض الآخر أنه جوهرة الكتابات المسيحية، وقطعة رائعة في فن البلاغة.

قال عنه ايسيدور بعد نياحة ذهبي الفم: (ليس من يقرأ هذا المجلد إلا ويشعر بقلبه يلتهب بحب الله. لأن يوحنا، المفسر الحكيم للأسرار الإلهية ونور الكنيسة كلها وضع هذا العمل بمهارة ودقة. [١]

في هذا الكتاب تجد الخدمة مجسمة، ففي مجال الحديث عن مسئولية الرعاية يقول: (ليكن الفارق بين الراعي ورعيته بمقدار ما بين العاقل والمخلوقات غير الناطقة ان لم يزد... لأن من يؤتمن على خراف المسيح الناطقة عليه أولا أن يحتمل عقوبة ضياع الخراف، عقوبة تفوق الأمور المادية، عقوبة تمس حتى نفسه...) ثم يقول (ان الراعي في حاجة إلى التوفيق الكثير، وأن تكون له ربوة من العيون ليلاحظ كل نفس على سجيتها).

أما عن الراعي نفسه فيقول: (وجب ان يتمتع الراعي بروح عالية حتى لا يفشل أو ييأس من خلاص التائهين عن القطيع، بل يقول في نفسه دائمًا: عسى أن يعطيهم الله توبة لمعرفة الحق، فيستفيقوا من فخ ابليس).

أما عن عمل الكاهن فيقول: (أن عمل الكاهن يسمو عن عمل العلماني بمقدار سمو الروح عن الجسد... إذا قيل لهم من فم الرب نفسه: كل ما تربطونه على الأرض يكون مربوطا في السماء، وكل ما تحلونه على الأرض يكون محلولاً في السماء. (متى ١٨:١٨) فهذا الربط يقع على الروح ويخترق السموات. وما يفعله الكهنة هنا على الأرض يصادق الله عليه من فوق. وما ينطق بع العبيد يؤيده السيد... انهم قد اؤتمنوا بالحقيقة على آلام المخاض الروحي والميلاد الذي يجري بالمعمودية... إننا بواستطهم نلبس المسيح، وندفن مع ابن الله، ونصير أعضاء في ذلك الجسد المقدس).

أخي نصارحك أن هذا الكتاب يعتبر مرجعًا لكل نفس أحبت المسيح حبًا دفعها إلى الخدمة حسب وصيته: (أتحبني؟... ارع غنمي) (يوحنا ٢١:١٦) فقد عالج هذا الكتاب جميع المواقف التي تواجهنا في مجالات الخدمة، والتي لا نستطيع في بعض الأحيان أن نجد لها علاجًا، فهو يشخص المرض، وفي نفس الوقت يصف العلاج.

والآن نتركك لتعيش مع الرعاة ومع القطعان... وتطلب من راعي الرعاة الأكبر الذي بذل نفسه عن الخراف أن يعود ويطلع على غنمه رعيته.

الكنيسة

---

[١] مقدمات في علم الباترولوجي للقس تادرس يعقوب ص ١١٧

محتويات الكتاب

مقدمة ٤
الكتاب الأول ٧
الكتاب الثاني ١٣
الكتاب الثالث ١٩
الكتاب الرابع.. ٣٣
الكتاب الخامس.. ٤٣
الكتاب السادس.. ٤٨

الكهنوت المسيحي

للقديس يوحنا ذهبي الفم

مقدمة[٢]

إن الحوادث المسجلة في هذا المقال الشهير عن الكهنوت، ربما حدثت عندما كان القديس يوحنا ذهبي الفم في حوالي الثامنة والعشرين من عمره. توفي والده بينما لم يزل هو طفلاً صغيرًا. وكانت أمه مسيحية تقية، ولكنها لم تكن تأمل أن يسلك ابنها في الدعوة الكهنوتية. وقد أبدى في حداثته قدرة كبيرة اظهرت استعداده للنبوغ في مهنة من المهن الثقافية، وبالفعل بدأ في سن الثامنة عشرة يلتحق بمدرسة ليبانيوس، أحد الفلاسفة السفسطائيين المشهورين في ذلك الوقت، والذي كان صيته واسعًا كاستاذ للفلسفة والبلاغة، وكان من أكبر المعارضين للمسيحية، ليس في أنطاكية موطنه الأصلي فحسب، بل أيضًا في أثينا ونيقوميديا والقسطنطينية. وكان كثيرًا ما يبدو متكلفًا ومتسنمًا في كتاباته، مما يكشف عن ضعف قدرته الأدبية، يحاول جاهدًا ان يقلد الكتاب القدامى في أسلوبهم، من غير ان يتشبع بروحهم. فهو وكتاباته، كما يقول جيبسون (فصل ٢٤)، في الجانب الكبير منها مقالات تافهة عقيمة، لخطيب يعمل على تزويق الألفاظ.

ولا ريب أن ذهبي الفم درس في مدرسة ليبانيوس لكبار الفلاسفة اليونانيين الكلاسيكيين. ورغم أنه لم يظهر إعجابًا كبيرًا بهم فيما بعد، ولم يقرأ لهم إلا القليل، إلا أن ذاكرته القوية مكنته بعدئذ ان يقتبس في عظاته بعض أقوال هوميروس وأفلاطون وكتاب الروايات. وفي مدرسة ليبانيوس أيضًا بدأ ينمي قدرته الطبيعية في البلاغة، حتى أن أستاذه، في رسالة له لازالت موجودة امتدح خطابًا وجهه تكريمًا للأباطرة. وبهذا أعطى الفيلسوف الوثني لذهبي الفم سلاحًا يستخدمه ضده فيما بعد. حتى أنه عندما كان على فراش الموت سأله أصدقاؤه عمن يستحق أن يخلفه فقال (أنه يوحنا... إن لم يكن قد سرقه المسيحيون).

وفي وقت ما اشتغل ذهبي الفم في مهنة المحاماة. وهذه المهنة كانت طريقًا أكيدًا لأن ينبغ في مجال السياسة كرجل موهوب، وكان هذا الطريق ممهدًا أمامه، وخصوصًا بعد أن نالت خطبه أعجابًا شديدًا. ولكن روح المحامي الشاب كانت قد ارتوت بجرعات كبيرة من نبع أنقى مما أخذه في مدرسة ليبانيوس، وكأي مسيحي في ذلك العصر، في مجتمع تلوّث بأفكار الوثنية وعاداتها خصوصًا في مدينة منحلة كأنطاكية ، كان لابد أن تتعثر حياته في الصراع بين أخلاقيات العالم الذي يحيا فيه وبين مستوى القداسة الذي يقدمه الإنجيل...

وقد أظهر عدم ارتياح لما كان سائدًا في مهنة المحاماة ـ التي كان يمارسها ـ من تلاعب وجشع مادي. وأزدادت هذه المشاعر في نفسه بتأثير صديقه الحميم باسيليوس، الذي كان يزامله في مدرسة ليبانيوس.

والكتاب الأول في الكهنوت يبدأ بوصف صداقة ذهبي الفم مع باسيليوس، وكيف درسًا علومهما معًا، وكيف توافقا في الأمزجة والميول. رغم أن باسيليوس عندما قرر أن يسير في ما لقبه ذهبي الفم أنه (الفلسفة الحقيقية) أي الأعتكاف للتأمل والدرس، لم يسرع ذهبي الفم في أن يسير وراءه في ذات الطريق. وهكذا اختل التوافق بينهما، فبينما ارتفع باسيليوس نحو السمائيات، كان يوحنا مثقلا بالاهتمامات الأرضية والمطامع الشبابية. واستمر فترة من حياته يظهر في ساحات القضاء، ويتردد على المسارح وأماكن اللهو، ولكن تدريجيًا مع قراءة الكتاب المقدس، ورغبة منه في تجديد علاقته بصديقه، وايضًا

---

[٢] By Rev. W. R. W. Stephens

بتأثير القديس ميلينيوس أسقف أنطاكية المحبوب... كل هذه الأمور بدأت تشغل تفكيره، حتى أنه قرر أن يترك العالم. فكان أول ما فعله أنه بعد فترة الاختبار المعتادة نال العماد.

وربما يبدو مستغربًا أنه لم يعتمد في طفولته، فقد كان تأخير العماد عادة سيئة في زمانه (وقد هاجمها ذهبي الفم في عظاته) وذلك لأن البعض اعتقدوا أن الخطية قبل المعمودية أقل جرمًا منها بعد المعمودية، والبعض الآخر كان يخشى ان يربط نفسه أو أولاده برباط القداسة الذي يتطلبه عهد المعمودية. وربما كان السبب الرئيسي ـ في رأيي ـ في تأخير عماد ذهبي الفم، هو الوضع المفكك في كنيسة أنطاكية. إذ انه من تاريخ ميلاد ذهبي الفم (حوالي ٣٤٥م)، ولمدة ستة عشر عامًا، كان يجلس على كرسي أنطاكية أساقفة أريوسيون يخدمون لحساب العالم. وفي عام ٣٦١ سيم الأسقف الصالح ميلينيوس، وبعد حوالي سبعة أو ثمانية أعوام اعتمد ذهبي الفم من يده، ثم سيم قارئا في الكنيسة.

ولا شك أنه مهما كان السبب في تأخير المعمودية، فإنها كثيرًا ما كانت نقطة تحول حاسمة في الحياة، وإعلانـًا لرفض قاطع للعالم وتكريس الحياة كلها لله. وقد كانت هكذا بالنسبة لذهبي الفم. بعدها ظل ناسكًا قانتـًا، ثم اتجه للإعتدال في نسكه مع عمق واضح في التقوى، ملتهبًا بقوة لا تهدأ حتى نهاية حياته. ويشير الكتاب الأول (فقرة ٣) إلى عماده وتركه للإتجاه الدنيوي حيث يتكلم عن (الخروج قليلاً عن طوفان العالميات) التي كان قد غاص فيها.

أما صديقه باسيليوس الذي رحب به كثيرًا، فعلى ما يبدو لم يكن قد ارتبط بجماعة رهبانية، بل كان يحيا في مجرد عزلة مع ممارسة بعض تدرايب التقشف الرهبانية. وقد عقدا عزمهما على فكرة فحواها الهروب معًا إلى عزلة هادئة، ليشدد أحدهما الآخر في دروب الدرس والتأمل والصلاة (فقرة ٤). ولكن تنفيذ هذا المشروع تعطل لوقت ما أمام توسلات أم ذهبي الفم ألا يحرمها من رفقته لها وعنايته بها. ولكن رفقته كانت إلى حد ما عديمة الجدوى، لأننا نعلم (من الكتاب ٦ فقرة ١٢) أن نادرًا ما كان يغادر المنزل، محتفظا بسكونه الدائم، منهمكًا دائمًا في دراسته وصلواته.

واستطاع بالفعل هو وصديقه باسيليوس وأصدقاء آخرون أن يكونوا فيما بينهم جماعة إختيارية من الشباب الناسك، يعيشون تحت نظام صارم. وقد وضع ذهبي الفم ورفقاؤه النظام العام لدراساتهم وحياتهم الروحية، تحت إرشاد ديودورس وكارتيريوس رئيسي أهم جماعتين رهبانيتين في محيط أنطاكية. وكان ديودورس يتمتع بقدرة فائقة في التعليم، مخالفًا لتلك التفسيرات المجازية الرمزية للكتاب المقدس. التي غالبًا ما تخفى أكثر مما توضح المعنى الحقيقي للنص المقدس. لذلك نحن مدينون كثيرًا لتعاليمه في هذا الأسلوب العملي المنطقي الواضح في التفسير، الذي تفوق فيه ذهبي الفم بشكل واضح على كل آباء الكنيسة القدامى تقريبًا.

وحوالي سنة ٣٧٤م، وبعد أن مارسوا هذا النوع من الحياة فترة ليست طويلة، أقلقهم خبر احتمال ترشيحهم للأسقفية (كتاب ١ فقرة ٦). كما جرت العادة في الكنيسة، كانا معرضين – إذا اختارهما الأكليروس والشعب – ان يمسكا بالقوة ويرسما، مهما كانا غير راغبين في هذه الدرجة (راجع الحاشية في فقرات ٦، ٧). وتوسل باسيليوس إلى صديقه طالبًا أن يكونا متفقين معًا في مواجهة الأزمة، كما كانا في المرات السابقة، وذلك بأنهما إما أن يقبلا سويًا هذه الكرامة المقبلة التي لا يرغبان فيها، أو يهربا إن كان ذلك في استطاعتهما.

وتظاهر ذهبي الفم بالموافقة على هذا الاقتراح، ولكنه داخليًا قرر أن يدخل باسيليوس في هذه الخدمة المقدسة، لأنه كان يعتبره مستحقا بجدارة، وفي الوقت ذاته كان يشعر في نفسه بعدم الاستحقاق، إذ لا ينبغي أن تحرم الكنيسة بسبب ضعفه من خدمات رجل مثل باسيليوس، طالما كان هذا في امكانه. ولذلك عندما ارسل جماعة الناخبين من يمثلهم ليمسكوا هذين الشابين، وجد ذهبي الفم وسيلته ليختفي. أسلوب ذهبي الفم في الكلام يبين أنه كان على علم بمجيئهم، الأمر الذي أخفاه عن باسيليوس عن عمد، فكانت النتيجة أنهم أمسكوا به.

وقاوم باسيليوس بعنف في بادئ الأمر، ولكنهم أوحوا إليه أن ذهبي الفم قد وافقهم، وامام هذه الحيلة رضخ للأمر. وعندما اكتشف هذه الخدعة التي خُدع بها، لام ذهبي الفم بشدة بالطبع لهذه الخيانة القاسية. ولكن ذهبي الفم كان يبدو مستريح الضمير تمامًا بالنسبة لما حدث، ذلك لأنه اعتبرها خدعة صالحة وعندما وجد صديقه في مزيج من مشاعر الضيق والغضب، لم يتوقف – كما يقول – عن أن يضحك بكل فرح شاكرًا لله على نجاح هذه الخدعة.

وظل ذهبي الفم حتى نهاية الكتاب الأول (فقرة ٨، ٩) يدافع عن مسلكه هذا، ويتحدث عن مبدأ مضمونه أن الخداع لأجل غرض صالح له دائمًا ما يبرره ويشجعه، وخصوصًا أنه تم بنبوغ ومهارة، لأن من قام به كان قد تمرس إلى عهد قريب في ساحات القضاء. وإن كان هذا التصرف ليس مرضيًا لدى الكل، ولكن ذهبي الفم كان له ما يبرره في هذه الحيلة طالما أنها تهدف للخير وان كنا، احقاقا للحق، ينبغي أن نشهد أن الصفات البارزة في حياة ذهبي الفم كانت الشجاعة والاستقامة والأمانة سواء في التصرف أو القول، بالرغم من الظروف التي كانت تلح عليه أن يتنكر للحق أو يساير الزمن.

وتعالج بقية مقالات الكهنوت، موضوع سمو هذه الخدمة الكهنوتية وكرامتها وقدسيتها، والمصاعب والمخاطر المختلفة التي تكتنفها. وهي مليئة بتأملات عميقة ودقيقة نافعة لكل الأجيال، وإن كانت على وجه الخصوص تلقى ضوءًا على حالة الكنيسة والمجتمع في العصر الذي عاش فيه ذهبي الفم.

وينبغي أن نلاحظ أنه قد تكلم عن الكهنوت عمومًا، وليس من السهل أن نحدد الفقرات التي قصد بها أن يتكلم عن درجة معينة من درجات الكهنوت. وفي أحيان كثيرة ربما لم يكن يفكر في واحدة دون الأخرى. وكما كان مستقرًا، لم يكن الأسقف في خدمته يتعدى حدود ايبارشيته، بل كان يرعى مدينة كبيرة معينة، فكان الراعي الأكبر للشعب، وفي نفس الوقت القائد للأكليروس.

وقد خلط البعض بين باسيليوس صديق ذهبي الفم، وبين باسيليوس الكبير أسقف قيصرية في كبادوكية، الذي كان يكبر ذهبي الفم بخمسة عشر عامًا. وخلط البعض الآخر بينه وبين باسيليوس أسقف سلوكية الذي كان أقل منه سنا. وفي الحقيقة لا نعرف شيئا عن باسيليوس أكثر مما كتب في هذا المقال. وان كان يظن أنه هو باسيليوس أسقف رافانيا في سوريا، التيت لا تبعد كثيرًا عن انطاكية، وهو الذي حضر مجمع القسطنطينية في ٣٨١م.

الكتاب الأول

١- باسيليوس يفوق كل أصدقاء ذهبي الفم.

٢- ترابط باسيليوس وذهبي الفم، ودراستهما المشتركة في كل المواضيع.

٣- اختلافهما بخصوص الاتجاه نحو حياة الرهبنة.

٤- اقتراح المعيشة في بيت مشترك.

٥- توسلات المحبة من أم ذهبي الفم.

٦- حيلة ذهبي الفم في موضوع الرسامة.

٧- باسيليوس يتهم ذهبي الفم بالخداع، وآخرون يتهمونه بالكبرياء والمجد الباطل.

٨- دفاع ذهبي الفم ردًا على الاعتراضات وحديثه عن فائدة الحيلة إذا كان توقيتها سليمًا.



كان لي كثيرون من الأصدقاء المخلصين الحقيقيين، الذين أدركوا أصول الصداقة وسلكوا فيها بأمانة. ولكن بين هذا العدد الكبير كان واحد يفوقهم جميعًا في التصاقه بي.

كان واحدًا من الذين يقفون دائمًا بجانبي، كنا مرتبطين معًا في ذات الدراسات، وعلى أيدي نفس الأساتذة [٣]. لنا نفس الحماس والغيرة في دراستنا التي كنا نقوم بها، ورغبة حارة بنفس القوة عند كلينا، نتجت عن الظروف الواحدة، ولم يكن هذا فقط عندما كنا ملتحقين بالمدرسة، ولكن حتى بعد أن غادرناها. وعندما كان لزامًا علينا أن نختار الطريق الأمثل الذي ينبغي أن نسلكه، وجدنا أنفسنا أن لنا نفس التفكير.

﴿ ٢ ﴾

وبالإضافة إلى هذا، كانت هناك عوامل أخر حفظت لنا توفقنا سليمًا ثابتا. فبالنسبة لعظمة النشأة، لم يكن لأحدنا ما يستحق أن يتعالى به على الآخر. فلم أكن مفرطا في الغنى، ولا كان هو موغلا في الفقر. ولكن كما اتفقت أمزجتنا، هكذا أيضًا مواردنا. وكانت عائلاتنا من طبقة واحدة، لذا فقد كان كل شيء يتوافق مع ميولنا.

﴿ ٣ ﴾

ولكن لما كان أمامنا ان نسلك طريق الرهبنة المقدس والفلسفة الحقيقية [٤]، اختل ميزاننا، فبينما نما هو جدًا في حياته، كنت – وأن منغمس في شهوات العالم – مشدودًا بها إلى الأسفل، ومثقلاً بطياشة الشباب. وفي الأيام التالية ظلت صداقتنا في الواقع الثابتة كما كانت من ذي قبل، ولكن أحاديثنا توقفت. لأنه لم يكن ممكناً لأشخاص ليس لهم الاهتمام الواحد، أن يقضوا معًا وقتا طويلاً. ولكن حالما بدأت أخرج قليلاً عن طوفان العالميات، استقبلني بذراعين مفتوحتين. ولكن حتى هذا لم يكن كافيًا لأن نصل إلى إلى التوافق الأول إذ رغم أن المبادرة كانت مني اولاً، وقد أظهرت حماسًا كبيرًا، إلا أنه ارتفع هو فوق مستواي، وحلق إلى علو شاهق.

﴿ ٤ ﴾

وإذ كان رجلا صالحًا، يقدر صداقتي كل التقدير، فصل نفسه عن الباقين (باقي الأخوة)، وقضى كل وقته معي، الأمر الذي كان يود أن يعمله من قبل، ولكن طياشتي عاقته كما ذكرت. لأنه كان مستحيلاً على إنسان تردد على ساحات القضاء، وكان في قمة الاضطراب من ملذات العصر، أن يكون دائمًا في صحبة رجل منكب على كتبه، لم يضع قدمه في السوق مطلقًا. وبالتالي عندما زالت العوائق، ونقلني إلى نفس الظروف التي كان يعيشها، أطلق العنان لرغبته التي طالما كان يسعى إليها. فلم يحتمل أن يتركني لحظة، بل أخذ يحثني دائمًا أن يترك كل منا بيته، لنسكن معًا في مسكن واحد. والحق أنه أقنعني، وبدأ الأمر يأخذ طريقه إلى التنفيذ.

---

[٣] أندروجانيوس في الفلسفة وليبانيوس في البلاغة.

[٤] تعبير استعمله ذهبي الفم كثيرًا بمعنى الحياة المكرسة للتأمل والدرس.



ولكن نحيب أمي المستمر عاقني عن ان أحقق له هذه الرغبة، أو بالأحرى أن أقبل من يديه هذه العطية. لأن أمي عندما علمت ان أفكر في هذه المشروع أخذتني إلى حجرتها الخاصة، وجلست بجانبي على السرير الذي ولدتني فيه، وذرفت سيلاً من الدموع، أضافت إليها كلمات تستحق الرثاء اكثر من بكائها [٥].

﴿ ٦ ﴾

هذه الكلمات وغيرها التي قالتها لي أمي، رويتها لهذا الشاب النبيل. ولكن رغم أنه لم يغلق قلبه دون هذه الكلمات، إلا أنه ظل يحبذ رغبته الأولى... وبينما نحن على هذا الوضع، هو لا يكف عن طلبه، وأنا أرفض الموافقة، إذ بنا ننزعج لخبر يصلنا فجأة أننا على وشك ان نرشح لرتبة الأسقفية، وحالما سمعت هذا انتابني ذعر وحيرة. ذعر لئلا أمسك بغير إرادتي، وحيرة متسائلا كما كنت دائمًا: متى بدرت هذه الفكرة عنا إلى عقول هولاء الناس؟!! فإني إذا نظرت إلى نفسي لا أجد في شيئًا يستحق هذه الكرامة.

ثم جاء هذا الشاب النبيل إليّ خفية، وتحدث معي عن هذه الأمور، كأنه يجهل الأمر، متوسلا أن نوجه أعمالنا ومشورتنا، في هذه الآونة كما كنا من ذي قبل، بطريقة واحدة، فهو على استعداد أن يتبعني في أي طريق أسلكه، سواء حاولت الهروب أو قبلت أن أكون أسقفا.

وعندما أدركت غيرته، واعتبرت أن سوف أسبب خسارة للكنيسة كلها إذا كنت، بالنظر إلى ضعفي الشخصي، أحرم قطيع الكنيسة من شاب صالح ومؤهل تمامًا لرعاية أعداد ضخمة، رفضت أن أصرح له بما ضمرته، رغم اني لم أخف عنه شيئًا من أفكاري قبلا.

أخبرته أنه من الأفضل أن نؤجل قرارنا بالنسبة لهذا الأمر إلى وقت آخر، طالما أنه ليس امرًا عاجلاً. وبهذا أقنعته أن يبعد هذا الموضوع من تفكيره، وفي نفس الوقت بذرت فيه الأمل أنه إذا حدث لنا شيء مثل هذا، فسوف أكون معه في نفس الإتجاه.

ولكن بعد وقت قصير، عندما حضر الشخص المكلف برسامتنا، ظللت مختفيًا، أما باسيليوس، جهلا منه بهذا، فأخذوه ووضعوا عليه النير لكنه كان يأمل، طبقًا لما أعطيته من وعود، أنني سوف ألحقه بالتأكيد، بل كان يفترض بالحري أنه هو الذي سوف يتبعني، وذلك لأن بعضًا من الحاضرين الذي رأوه يجاهد ألا يمسكوه، خدعوه عندما تساءلوا بتعجب: كيف أن الشخص الذي اشتهر بحدة الطبع (قاصدين إياي) قد خضع بهدوء لحكم الآباء، بينما هو الذي يعتبر رجلا أكثر حكمة وهدوءًا، يبدو هكذا عنيدًا ومتكبرًا بتمرده وجموحه ومقاومته [٦].

---

[٥] يستطرد ذهبي الفم في وصف الحديث الطويل الذي كانت أمه ترجوه فيه ألا يتركها إلى حياة الوحدة، وتذكره انها ترملت في سن مبكر، وتحملت مشاق المسئولية منذ حداثة سنها، وأنفقت عليه كل ما تملك، وفي كل هذا كان هو (ذهبي الفم)، عزاءها الوحيد. وكل ما طلبته مقابل هذا، هو ألا يدفعها إلى ترمل ثان، ولا يجدد أحزانها... ثم وعدته ان توفر له كل أسباب الخلوة والدراسة كما يريد.

[٦] كانت الرسامة بالإرغام شائعة في الكنيسة في ذلك الوقت، فالقديس اوغطينوس جروه أمام الأسقف وهو يبكي وطلبوا رسامته. والقديس مارتينوس سحبوه من قلايته وأخذوه للرسامة تحت الحراسة. وظلت صورة التمنع من الرسامة تقليدًا في الكنيسة القبطية فكان المنتخب لكرسي الاسكندرية يؤتى به إلى القاهرة مربوطًا بالسلاسل، كأنما ليمنعوه من الهروب.

ولما استسلم، ثم علم فيما بعد أني نجحت في الهروب، حضر إلي في حزن عميق وجلس بجواري وحاول أن يتكلم، ولكن أفكاره الحزينة عاقته، ولم يستطع أن يعبر بالكلام عما قاساه من عنف. ولما فتح فاه لم يقو على النطق، لأن الحزن كان يحبس كلماته قبل أن تصل إلى شفتيه. وعندما رأيت دموعه واضطرب حاله، ضحكت بكل فرح، لأني أعرف السبب، وأمسكت بيده اليمنى وقبلته، وشكرت الرب أن خطتي قد انتهت بالنجاح كما كنت أصلي دائمًا. ولكنه لما رآني مبتهجًا ومتهللا بالفرح، وأدرك أنني قد خدعته إزداد ضيقا وغمًا.

﴿ ٧ ﴾

ولما هدأ بادرني قائلاً: إذا كنت قد رفضت النصيب الذي عين لك دون أن توليني أي اعتبار، فكان يجب على الأقل أن تعمل حسابًا لسمعتك الشخصية، ولكن الذي حدث انك بهذا العمل أطلقت عليك ألسنة الجميع، فالعالم يقول أنك تركت هذه الخدمة حبًا في المجد الباطل [٧]. ولكني خجلت أن أقول لهم أني لم أكن أعلم أنك تدبر هذه الخدعة منذ زمن طويل، لئلا يقال أن صداقتنا كانت مظهرية فقط.

ولكن كيف يمكن ان تحتمل الفضيحة المقبلة؟ فالبعض يتهمونك بالكبرياء، والآخرون بالمجد الباطل. والذين يترفقون في اتهامنا، يصفوننا بهاتين الرزيلتين، ويضيفون أننا قد أهنا الذين صنعوا معنا كرامة رغم أنهم يستحقون هذه الإهانة إذا لحقتهم، لأنهم تركوا كثيرين من الرجال المناسبين وقدموا إلى هذه الكرامة شبابًا [٨]. كانوا حتى الأمس منغمسين في اهتمامات هذا العالم... قل لي إن كان هناك عذر مقبول أقدمه لهؤلاء الذين يتهموننا.

﴿ ٨ ﴾

ذهبي الفم: فقلت له: فلتطب نفسك، لأني لست على استعداد أن أجيب عن نفسي في هذه الأمور فحسب بل أيضًا سأحاول على قدر الإمكان أن أجيب حتى عن هذه الأشياء التي لم تطلب مني الإجابة عنها.

إنه لغباء غريب مني أن أفكر فقط في مديح العالم الخارجي، وأبذل جهدي في تفنيد اتهاماتهم، في حين أني أجد نفسي عاجزًا عن أن أقنع أعز أصدقائي أني لم أخطئ إليه، أو أنني اعامله بلا اكتراث مقابل ما أظهر لي من غيرة نحوي...

ترى ما هو الخطأ الذي ارتكبته في حقك؟

هل هو لأني خادعتك وأخفيت عنك غرضي؟ ولكني فعلت هذا لفائدتك أنت يا من خدعتك، ولفائدة الذين سلمتك إليهم عن طريق هذا الخداع. لأنه إذا كان الخداع شرًا مطلقًا، وليس من الصواب أن نسلك فيه، فإني على استعداد أن أتحمل أية عقوبة ترضيك.

ولكن ان لم يكن هذا الأمر ضارًا باستمرار، بل يعتبر نافعًا أو ضارًا بحسب نية الذين يفعلون، لذا يجب أن تكف عن شكواك من خداعي لك... لأن الحيلة في وقتها المناسب، وبقصد مستقيم لها فوائدها.

وإذا فحصت تاريخ القادة الذين تمتعوا بسمعة عظيمة منذ أقدم العصور، سوف تجد أن معظم انتصاراتهم قد أحرزوها بالخدعة، وأنهم نالوا اعجابًا أكثر من الذي ينتصرون بالحرب المباشرة... لأن الآخرين يزودون معسكراتهم بالكثير من

---

[٧] رأينا ان نستغني عن عبارات كثيرة من هذه الفقرة تجنبًا للأستطراد والإطالة، مع وضع النقط مكان العبارات المحذوفة. (المترجم).

[٨] كان ذهبي الفم في حوالي الثامنة والعشرين من عمره في ذلك الوقت. وقد حدد مجمع قيصرية الجديدة (حوالي ٣٢٠م) سن الثلاثين على أنه السن المناسب للكهنوت. وهو نفس السن على الأقل بالنسبة للأسقف، ولو ان بعض الأساقفة سيموا في أقل من هذا السن.

المال والرجال لذا فانهم لا يفيدون شيئًا من انتصاراتهم، ولكنهم يعانون من الخسائر ما يعانيه المنهزمون إذ يضحي كلاهما بالجيوش، ويتكبد النفقات. وإلى جانب هذا، فانهم لا يفرحون بكل أمجاد النصر... لأن المنهزمين يشعرون في أنفسهم أن هزيمتهم مادية فقط. أما الذي يستطيع أن يحرز النصر عن طريق الحيلة فانه يورط العدو لا في كارثة فقط بل في سخرية أيضًا.

أمر آخر لا يقل أهمية هو أنهم يحتفظون للدولة بانتصار حقيقي، لأن الكثرة في العتاد والوفرة في الرجال ليست مثل القدرة العقلية، فإذا استخدمت الأولى في الحرب، فإنها بالضرورة سوف تهلك ولا تعود تنفع بشيء أما طبيعة الحكمة فإنها تزداد كلما نستعملها.

وحاجتنا إلى الحيلة ليست فقط في أوقات الحرب بل أيضًا في أوقات السلم، ليس فقط في شئون الدولة بل أيضًا في الحياة الخاصة، في تعامل الزوج مع زوجته، والزوجة مع زوجها، والأبن مع أبيه، والصديق مع صديقه، والأولاد مع والديهم. فما كان يمكن لأبنة شاول أن تخلص زوجها من يد أبيها [9] إلا عندما خدعته، وعندما أراد أخوها أيضًا أن ينقذه مرة أخرى من الخطر عاد ليستخدم سلاح الزوجة ذاته.

باسيليوس: ولكن واحدة من هذه الحالات لا تنطبق عليّ. لأني لست عدوا، ولا واحدًا من هؤلاء الذين يحاولون أن يوقعوا بك الضرر، بل على النقيض، فقد اخضعت كل أموري لرأيك، وكنت دائمًا أطيع كل ما تشير به عليّ.

ذهبي الفم: ولكن يا سيدي القدير المحبوب، إن هذا هو نفس السبب الذي جعلني أحرص أن أقول أنه كان من الصالح أن أستخدم هذا الصنف من الإحتيال، حتى في معاملة الأصدقاء والأعزاء. والدليل على هذا أنك إذا ذهبت إلى أحد الأطباء، وسألتهم كيف يعالجون المرضى من أمراضهم فإنهم يخبرونك أنهم لا يعتمدون على مهارتهم الفنية فحسب، بل أحياناً يقودون مرضاهم إلى الصحة باستخدام الحيلة، ويستعينون بها مع فنهم.

وإذا سمحت لي فسوف أقص عليك مثلاً واحدًا من أمثلة كثيرة في الخداع، سمعت أن أهل الطب استخدموها.

رجل انتابه فجأة حمى خطيرة جدًا، وارتفعت حرارته جدًا، ولكن المريض رفض العلاج الذي يمكن أن يخفض درجة الحرارة، وألح في طلب جرعة من الخمر متوسلاً إلى الجميع أن يقدموها له، ويمكنوه من إشباع هذه الرغبة القاتلة – أقول قاتلة، لأنه لو استجاب أحد لهذا الطلب فإن هذا لا يسبب زيادة الحمى فحسب، بل يقود إلى الجنون.

عندئذ عندما فشلت المهارة الفنية، هنا تدخلت الخدعة... أحضر الطبيب إناء فخاريًا أخرجه للوقت من الفرن وغمسه في الخمر، وأخرجه فارغًا ثم ملأه بالماء، وأمر بإظلام الحجرة التي يرقد فيها المريض بالستائر حتى لا يفضح الضوء حيلته، ثم قدم له الإناء ليشرب مدعيًا أنه مملوء بخمر خالصة. وقبل أن يتناوله الرجل بكلتا يديه، خدعته الرائحة، ولم يتمهل ليختبر ما قدموه له بل اقتنع بالرائحة، وخدع بالظلام، فتجرع الكأس بلهفة، ولما ارتوى بها تخلص في الحال من إحساسه بالاختناق، وأنقذ من الخطر الذي كان على وشك الحدوث. ألا ترى ميزة الخداع؟

وإذا أراد أحد أن يحصى حيل الأطباء لاستطالت القائمة بلا حدود. وليس فقط الذي يعالجون الجسد بل أيضًا الذين يعالجون الروح قد نجدهم دائمًا يستخدمون هذا العلاج. فبولس المبارك، لكي يستميل شعب اليهود [10] ختن يتموثاوس [11]،

[9] ١ صموئيل ١٩: ١٢- ١٨

[10] أعمال ٢١:٢٦

[11] أعمال ١٥:٣

[12] غلاطية ٥:٢

رغم أنه حذر الغلاطيين في رسالته [١٢] أن المسيح سوف لا ينفع الذي اختتنوا شيئا. لهذا السبب أطاع الناموس رغم أنه حسب البر الذي في الناموس خسارة، بعد نوال الإيمان بالمسيح [١٣] لأن فوائد الحيلة كثيرة إلا إذا كانت بنية شريرة.

وفي الحقيقة أن عملاً من هذا النوع لا ينبغي أن يسمى خداعًا، بل هو نوع من التصرف الحسن والنبوغ والمهارة القادرة أن توجد السبل حين تفشل الحيل، وتجد مخرجًا لما يعجز عنه الفكر. لأني لا أسمى فينحاس قاتلاً، رغم أنه قتل اثنين بضربة واحدة [١٤]، ولا إيليا، بعد أن قتل مائة جندي مع قوادهم [١٥]، وأراق بحرًا من الدماء، عندما قتل هؤلاء الذي عبدوا الشياطين[١٦]. لأنه إذا جاز لنا أن نقبل أن نختبر الأفعال مجردة في ذاتها بعيدة عن نية فاعليها، لأمكن لأحد – إذا أراد – ان يحكم على إبراهيم بجريمة قتل طفل [١٧]، ونتهم كل من حفيده[١٨] وسليله بالشر[١٩] والغدر، لأن الأول أخذ البركة، والثاني حول ثروة المصريين لجماعة بني إسرائيل. ولكن ليس الوضع كذلك بل لنستبعد هذه الفكرة الظالمة، لأننا لسنا نعفيهم من الملامة فحسب، ولكننا نعجب بهم لأجل هذه الأمور. والله ايضًا يمدحهم لأجلها. لأن الرجل الذي يجب أن يسمى محتالاً بحق هو الذي يستعمل هذا الأمر لغرض شرير، وليس الذي يفعله بقصد صالح. بل كثيرًا ما يكون من اللازم أن نستخدم الحيلة، ونحقق بها أكبر قدر من الفائدة، في حين أن الذي يسلك طريقًا مستقيمًا قد يصيب الشخص الذي لم يخدعه بضرر كبير.

---

[١٣] فيلبي ٢:٧

[١٤] عدد ٢٥:٧

[١٥] ٢ ملوك ١: ٩- ١٢

[١٦] ١ ملوك ١٨:٣٤

[١٧] تكوين ١٧:٣

[١٨] تكوين ٢٧:١٩

[١٩] خروج ١١:٢

الكتاب الثاني

١. الكهنوت هو أعظم دليل على محبة المسيح
٢. خدمة الكهنوت أعظم من أي خدمة أخرى
٣. الكهنوت في حاجة إلى نفس متسعة وسامية
٤. وهو مملوء بالكثير من المصاعب والمخاطر
٥. ذهبي الفم تجنب هذه الوظيفة لمحبته في المسيح
٦. إظهار فضيلة باسيليوس وحبه الملتهب
٧. ذهبي الفم لم يقصد إهانة ناخبيه عندما تجنب الرسامة
٨. بهروبه خلصهم من اللوم



يمكننا أن نبرهن بالدليل القاطع أنه من الممكن المخادعة لأجل هدف صالح، او على الأصح لا تسمى خدعة في مثل هذا الظرف، بل هو نوع من التصرف الحسن جدير بكل إعجاب. ولكن طالما أن ما قيل كاف للتوضيح فانه مما يجلب الملل والضيق أن أطيل حديثي في الموضوع. والآن بقي عليك أن تثبت إذا كنت لم استخدم هذه الحيلة لفائدتك.

باسيليوس: وما هي الفائدة التي كسبتها من وراء هذا التصرف الحسن. أو السياسة الحكيمة، أو سمها كما يحلو لك أن تسميها؟!!

ذهبي الفم: أي فائدة، سيدي، يمكن أن تكون أعظم من أن تعمل تلك الأمور التي أعلنها المسيح بشخصه أنها علامات المحبة له [٢٠]؟ فهو يخاطب الرسول قائلا: {بطرس أتحبني؟} ولما اعترف أن يحبه أكمل الرب قائلا {أن كنت تحبني إرع غنمي} وقد سأل السيد التلميذ كذلك لا لكي يعرف (لأنه فاحص قلوب جميع الناس) ولكن لكي يعلمنا عظم إهتمامه بتدبير أمر هذه الخراف. وإذا يتضح لنا هذا، سيظهر لنا بطريقة مماثلة أن جزاءًا عظيمًا لا ينطق به سوف يعطي للذين يهتمون بهذه الخراف التي يقدرها المسيح تقديرًا كبيرًا. لأننا عندما نرى أحدًا يهتم بأفراد بيتنا أو شعبنا، فإننا نعتبر إهتمامه بهم علامة محبة لنا، مع أن ذلك يمكن تقديره بالمال. فبأي مجازاة إذن يجازي هؤلاء الذي يرعون قطيعه الذي اشتراه لا بالمال ولا بشيء آخر بل بموته، باذلا دمه كثمن للقطيع. لذلك عندما قال التلميذ {يارب أنت تعلم أني أحبك}، واستشهد بالمحبوب نفسه كشاهد على حبه، لم ينه المخلص حديثه، بل أكمل موضحًا علامة الحب. لأنه في هذا الوقت لم يرد أن يبين مقدار حب بطرس الكثير ولكم مقدار حبه هو لكنيسته، وأراد أن يعلم بطرس ويعلمنا جميعًا أن نكون غيورين لنفس الهدف، لأنه لماذا لم يشفق الرب على ابنه الوحيد [٢١] بل أسلمه رغم أنه وحيده، ذلك لكي يصالح لنفسه الذين كانوا معتبرين أعداء له ويجعلهم شعبه الخاص.

لأنه لماذا سفك دمه؟ ذلك لكي يربح هذه الخراف التي عهد بها إلى بطرس ومن بعده. لذلك قال الرب {من هو العبد الأمين الحكيم الذي يقيمه سيده على خدمه} [٢٢] مرة أخرى تبدو هذه الكلمات وكأن قائلها في شك، إلا أنه لم ينطقها شاكا ولكنه أراد أن يسأل بطرس إن كان يحبه، لا لكي يعرف مشاعر التلميذ، ولكن رغبة في أن يظهر عمق حبه الفائق. نفس الوضع عندما يقول {من هو العبد الأمين الحكيم} فإنما يقولها ليس جهلاً منه بمن هو الأمين الحكيم، ولكن رغبة في أن يعلن أن مثل هذا الشخص نادر ووظيفته سامية. فتأمل مدى عظمة المكافأة، لأنه يقول { أن يقيمه على جميع أمواله} [٢٣]



هلا لازلت تشك في أننا أخطأنا إليك عندما قدمناك لترعى رعية الله، وتقوم بالعمل الذي طلبه الرب من بطرس تعبيرًا عن محبته التي فاقت محبة بقية التلاميذ عندما قال له {يا بطرس، أتحبني أكثر من هؤلاء؟ ارع غنمي}...

كان يمكن أن يقول له: {إن كنت تحبني مارس الصوم، والنوم على الأرض، والسهر الطويل، دافع عن المظلومين، كن أبًا لليتيم وللأرملة عوض زوجها... ولكن الحقيقة أن ترك كل هذا جانبًا وقال {ارع غنمي}. لأن كل الأشياء التي ذكرتها

---

[٢٠] يوحنا ٢١: ١٥- ١٧

[٢١] روميه ٣٢:٨، يوحنا ١٦:٣

[٢٢] متى ٤٥:٢٥

[٢٣] متى ٤٧:٢٤

سابقا يمكن أن يقوم بها كثيرون من المرؤوسين، وقد تقوم بها النساء أيضًا، ولكن عندما يطلب من شخص أن يقود الكنيسة وتوكل إليه رعاية هذه النفوس الكثيرة، فان جميع النساء، وأكثر الرجال، يجب أن يتراجعوا أمام عظمة العمل، حينئذ يتقدم من علت منزلتهم الروحية على الباقين، وفاقت فضائلهم الكثيرين كما كان شاول[٢٤] يعلو كل الشعب العبراني في البنية الجسدية، بل وأكثر من هذا، لأني في هذه الحالة لن أتخذ طول القامة مقياسًا بل ليكن الفارق بين الراعي ورعيته بمقدار ما بين الإنسان العاقل والمخلوقات غير الناطقة ان لم يزد، لأن المخاطرة المطلوبة تتصل بأمور لها أهمية عظمى. لأن خطر رعاية غير الناطقين ليس بعظيم، فان من أضاع غنمًا سواء بافتراس الذئاب أو سرقة اللصوص أو تفشى مرض الطاعون أو أي كارثة أخرى، ربما يجد نوعًا من التساهل من صاحب القطيع. وإن أراد صاحب القطيع تعويضًا، فان التعويض هنا يكون ماديًا، ولكن من يؤتمن على بشر هم خراف المسيح الناطقة، فعليه أولاً احتمال عقوبة ضياع الخراف، عقوبة تفوق الأمور المادية، عقوبة تمس حتى النفس، وعليه ثانية أن يخوض صراعًا أعظم وأقسى، لأن مصارعته ليست من ذئاب أو لصوص وليس اهتمامه من أجل حماية القطيع من الوباء. إذن مع من عليه أن يحارب؟ ومن من يتصارع؟ استمع لكلمات الرسول بولس: {مصارعتنا ليست مع دم ولحم بل مع الرؤساء، مع السلاطين، مع الولاة على ظلمة هذا العالم، مع أجناد الشر الروحية في السماويات[٢٥] }.

أرأيت جمعًا مخيفا من الأعداء، بجحافلهم المفترسة متسربلين لا بصلب أو فولاذ بل بطبيعة هي في ذاتها تعادل عدة كاملة للحرب؟ أتريد أن تشاهد جيشًا آخر قويًا وقاسيًا يحاصر هذا القطيع؟ هذا أيضًا تراه بنفس النظرة لأن الذي حذرنا من أولئك الأعداء هو ذاته الذي أوضح لنا هؤلاء الأعداء الآخر، إذ يقول في موضع آخر: {أعمال الجسد ظاهرة التي هي زنا عهارة نجاسة دعارة عبادة أوثان، سحر عداوة خصام غيرة غضب شقاق[٢٦] مذمات نميمات تكبرات تشويشات[٢٧]. وأشياء غيرها كثيرة... لأنه لم يحصر قائمة كاملة بل تركنا لنفهم البقية.

فوق هذا ففي حالة رعاية المخلوقات غير العاقلة، نجد أن الذين يريدون اختطاف القطيع واهلاكه، متى نظروا الحارس هاربًا منهم بعيدًا يكفون عن الحرب معه ويكتفون بالاستيلاء على القطيع. ولكن هذه الحالة، حتى عندما يسلبون القطيع كله، لا يتركون الراعي بلا محاربة بل يهاجمونه أكثر، ولا يكفون عن مهاجمته حتى يطرحونه أو ينتصر هو عليهم.

أيضًا آلام الغنم ظاهرة: إن كانت مجاعة أو وباء أو جراحات أو أي شيء مما يضايقها. وسهولة ظهور الأمراض يساعد كثيرًا في علاجها. بل هناك عنصر آخر أبلغ في سرعة علاجها من الأمراض، وهو ان الرعاة لهم سلطان أن يرغموا الخراف على تقبل العلاج متى رفضته، لأنه من السهل ان يربطونها أن دعت الحاجة إلى كيها أو قطع أحد أعضائها، أو يحبسونها داخل الحظيرة لفترة طويلة ان لزم الأمر، أو يقدمون إليها نوعًا من الطعام دون الآخر، أو يمنعون عنها الماء... وكل ما يرونه ضروريًا لشفائها فانهم يتممونه بكل سهولة.

[٢٤] ١ صموئيل ١٠: ٢٣

[٢٥] أفسس ٦: ١٢

[٢٦] غلاطية ٥: ١٩، ٢٠

[٢٧] ١ كورنثوس ١٢: ٢٠



أما في حالة الأوجاع البشرية فانه: أولا ليس من السهل على الإنسان أن يشخصها. لأنه لا {لا يعرف أمور الإنسان إلا روح الإنسان الذي فيه}[٢٨] فكيف إذن يقدر أي واحد أن يصف علاجًا لمرض لا يعرف طبيعته؟؟ حتى او أصبح المرض معروفا له فان مهمة العلاج تكون شاقة، لأنه ليس من السهل على الطبيب أن يعالج الجميع بنفس السلطان الذي يتعامل به الراعي مع غنمه. فقد يحتاج العلاج إلى ربط المريض، أو منعه من الطعام، او استعمال الكي أو المشرط، كما أن قبول العلاج يتوقف على رغبة المريض لا الطبيب. وهذا ما أدركه الرجل العجيب (القديس بولس) عندما قال للكورنثيين {ليس أننا نسود على إيمانكم بل نحن موازرون لسروركم}[٢٩] لأن المسيحيين – دون سواهم – لا يسمح لهم أن يعالجوا الخطاة بغير إرادتهم.

إن قضاة العالم عندما يقبضون على فعلة الاثم بسلطة القانون يستعملون سلطانا عظيمًا، ويمنعونهم من مواصلة شرورهم ولو رغم إرادتهم، أما في حالتنا فان الخاطئ يجب أن يصلح لا بالارغام بل بالاقناع، لأننا لن نعط بالقانون سلطانا من هذا النوع لقمع الخطاة، وإذا أعطينا فلا يوجد المجال لنمارس فيه هذه القوة، طالما أن الله يكافئ الذين يمتنعون عن الشر باختيارهم وليس بالاجبار، لهذا كانت المهارة واجبة لكي تقنع مرضانا بقبول الدواء الذي يصفه الأطباء الروحيون، وليس هذا فحسب بل ليكونوا شاكرين أيضًا لمعالجتهم لأجل نعمة الشفاء، لأنه أن قاوم أحد قيود العلاج (إذ في سلطانه هذا) فقد صار مرضه أفدح. وإن لم يلق بالا للكلمات التي تقطع كالسيف فانه باستهانته يضيف إلى جرحه جرحًا آخر ويأتي العلاج بنتائج أسوأ.



ماذا على الراعي أن يفعل، لأنك ان تعاملت بطلف مع من يحتاج إلى استعمال المبضع بعنف، ولم تجرح بعمليته من تستدعي حالته ذلك، فكأنك تستأصل جانبًا من الالتهاب وتترك الآخر. ومن ناحية أخرى فانك ان قمت بالاستئصال المطلوب بلا شفقة، فان المريض اذ تقوده آلامه إلى اليأس، سوف يهرب دفعة واحدة من كل شيء، من العلاج والأربطة معًا، ملقيًا بنفسه إلى الهلاك. {يكسر النير ويقطع الربط}[٣٠].

واستطيع أن أخبر عن كثيرين اندفعوا إلى شرور أفدح عندما أخذوا العقاب الواجب على خطاياهم. لذلك عند توقيع العقوبة لا يجب علينا أن نقدرها بالنظر إلى الخطأ فقط، بل بالأحرى أن تضع في الاعتبار استعداد الخاطئ. لئلا وانت ترغب ان تصلح ما تمزق تجعل الخرق أردأ، وإذ تعمل بحماس لتقيم الساقط، تجعل سقطته أعظم. لأن الأشخاص الضعفاء والمتهاونين المنغمسين في ترف العالم وملذاته، والذين يملكون أسباب الجاه والتفاخر بالحسب والنسب – متى أخطأوا – يمكن إذا دعوناهم إلى التوبة بلطف وأناة ان يقلعوا، ولو جزئيًا على الأقل أن لم يكن تمامًا، عن خطاياهم التي تسلطت عليهم. أما إذا طبق أحد عليهم القانون دفعة واحدة، فانه سيحرمهم من هذه الفرصة للشفاء. لأن النفس إذا اضطرت مرة أن

[٢٨] ١ كورنثوس ٢: ١١

[٢٩] ٢ كورنثوس ١: ٢٤

[٣٠] راجع ارميا ٥: ٥

تنزع عنها الحياة فانها تتردى في حالة قاسية، فلا تلين لكلمات رقيقة ولا تخضع لتهديد، ولا ينجح فيها علاج، بل تزول إلى حال أردأ من تلك المدينة التي وبخها النبي بقوله: {وجبهة أمرأة زانية كانت لك، وأبيت أن تخجلي من كل الناس}[٣١].

لذلك فالراعي في حاجة إلى التدقيق الكثير، وأن تكون له ربوة من العيون ليلاحظ كل نفس على سجيتها. لأنه كما أن كثيرين يتعالون غرورًا فيسقطون في اليأس من جهة خلاصهم لعدم احتمالهم الأدوية الصعبة، كذلك يوجد آخرون يسقطون في الأهمال من جراء عدم تأديبهم بالعقوبة التي تتناسب من أخطائهم، ويصيرون إلى حال أسوأ، ويتعرضون للسقوط في خطايا أكبر. لذلك ينبغي على الكاهن أن يلاحظ هذه الأمور بدقة، ويقدم العلاج الذي يراه مناسبًا لئلا تضيع غيرته هباء. وليس في هذا المجال فقط، بل نرى أيضًا أن الكاهن عليه أن يجاهد كثيرًا في ضم أعضاء الكنيسة المفصولين. لأن راعي الخراف يجب أن يتبعه قطيعه حيثما يذهب. فاذا حدث أن أنحرف أحدهم عن الطريق المستقيم وترك المرعى الصالح ليغتذى من الأماكن الوعرة وغير المفلحة، فان نداء عاليًا كاف لارجاعه. ولكن إذا انحرف انسان عن الايمان الصحيح، فان هذا يتطلب الكثير من الجهد والمثابرة والصبر، لأنه لا يمكن ارجاعه بالقوة أو منعه بالتخويف بل العمل على عودته إلى الحق الذي انحرف عنه بطريق الاقناع.

لذلك وجب ان يتمتع الراعي بروح عالية، حتى لا يفشل أو ييأس من خلاص التائهين عن القطيع، بل يقول في نفسه دائمًا: {عسى أن يعطيهم الله توبة لمعرفة الحق فيستفيقوا من فخ ابليس}[٣٢] لذلك لما خاطب الرب تلاميذه قال لهم: {من هو العبد الأمين}[٣٣] لأن من يصلح ذاته فقط فانه يقتصر على منفعة نفسه، بينما تمتد الرعاية لتشمل الشعب كله. ومن يوزع المال على المحتاجين أو ينصف المظلومين فانه يفيد الآخرين إلى حد ما، وهذا عمل العلماني، ولكن عمل الكاهن يسمو عنه بمقدار سمو الروح عن الجسد، لذلك ما أصدق قول الرب أن الغيرة على القطيع هي علاقة المحبة لشخصه!

ولكن أنت... ألا تحب المسيح؟

ذهبي الفم: نعم اني أحبه، وسوف لا أكف عن حبه، لكني أخشى أن أغضب من أحب.

باسيليوس: أن كلامك هذا لغز كبير، فالمسيح يطلب ممن يحبه أن يرعى خرافه ومع هذا فأنت تتجنب رعايتهم رغم أنك تحب من أعطى هذا الأمر...

ذهبي الفم: أن كلامي ليس لغزًا ولكنه واضح جدًا وبسيط، لأنني لو كنت مؤهلا تمامًا لأداء هذه الخدمة كما يريدها المسيح ثم تهربت، لكان كلامي موضع شك. ولكن طالما ان ضعفي يجعلني غير نافع لهذه الخدمة فلماذا يكون كلامي محلا للتساؤل؟ لأني أخشى أنني إذا تسلمت رعية المسيح وهي في تمام النمو والشبع ثم لعدم كفاءتي أهلكتها. فاني أجلب على نفسي غضب الله الذي أحب القطيع وأسلم نفسه لخلاصه وفداءه.

باسيليوس: ان هذه الكلمات تحزنني، لأنك لو كنت قد تخليت عن الخدمة لأحساسك بعدم كفائتك، فاني أحوج منك أن أتخلى عنها... لأنك عشت معي واختبرتني عن قرب، فكيف انسقت وراء الرأي العام والقيت بي إلى هذا الخطر الكبير؟؟

ذهبي الفم: أن مثل هذه الأمور تقتضي التحري الكامل، ومن يرشح أحدًا للكهنوت ينبغي ألا يقنع بالرأي العام، ولكن يجب عليه فوق كل شيء وقبل كل شيء أن يختبر أخلاق الرجل. فعندما قال الرسول بولس: {يجب أيضًا أن تكون له شهادة حسنة من الذين هم من خارج}[٣٤] لم يغفل أهمية الفحص الدقيق... ولكن بعد حديث طويل ذكر هذه الشهادة، مبرهنا أن

---

[٣١] راجع ارميا ٣: ٣

[٣٢] تيموثاوس ٢: ٢٥

[٣٣] متى ٢٤: ٤٥

[٣٤] ١ تيموثاوس ٣: ٧

الأنسان لا يقنع بها بمفردها في مثل هذا الاختيار، بل تؤخذ في الاعتبار مع غيرها، لأن الرأي العام غالبًا لا يعبر عن الحقيقة ولكن إذا سبقه الفحص الدقيق فلا يأتي بضرر.

باسيليوس: إن هذا كلام يدينك، لأنك سمعت مني كثيرًا عن ضعفي وجبني أمام الهموم العادية.

﴿ ٥ ﴾

ذهبي الفم: أذكر حقيقة اني كنت اسمع منك مثل هذا الكلام ولست انكره... ولكني سأبرهن لك أنك قلت هذه الأشياء من قبيل انكار الذات، وليس توخيًا للحقيقة... والآن اقدم لك سؤالا؟ أتعلم مقدار عظمة المحبة وقوتها؟ لأنه رغم كل المعجزات التي كان في مقدور الرسل أن يصنعوها، قال المسيح: {بهذا يعرف الجميع أنكم تلاميذي ان كان لكم حب بعض لبعض}[٣٥] وقال بولس: {المحبة هي تكميل الناموس}[٣٦] وانه في فقدانها لا فائدة في أي عطية روحية، ولأن هذا هو النصيب الصالح[٣٧]، والعلامة المميزة لتلاميذ المسيح، والعطية التي تسمو عن كل العطايا الأخرى... وهذا ما أدركته ان مغروس في روحك بعمق.

﴿ ٦ ﴾

ملخص: ولما ادعى باسيليوس أنه لم يبلغ إلى تحقيق نصف ما تتطلبه وصية المحبة، وبالتالي لا يستحق أن يزكى للكهنوت، ذكره ذهبي الفم بحادثة قديمة وجد فيها باسيليوس نفسه أمام زميل له اتهم زورًا، فلم يجد باسيليوس بدًا من ان يضحي بنفسه لكي ينقذه، منفذا وصية الرب {ليس لأحد حب أعظم من هذا أن يضع أحد نفسه لأجل أحباءه}[٣٨].

﴿ ٧ ﴾

ملخص: ينفي ذهبي الفم عن نفسه تهمة انه أهان ناخبيه بامتناعه عن الكهنوت، لأنه لا يليق بأي إنسان أن يهين من أرادوا أن يكرموه.

﴿ ٨ ﴾

ملخص: ثم يقول انه، على النقيض، قد أعتقهم من لوم الآخرين لهم إذا أوكلوا هذه المهام العظيمة لشاب جاهل مثله...

---

[٣٥] يوحنا ١٣: ٣٥

[٣٦] رومية ١٣: ١٠

[٣٧] أي ان اختيار الكهنوت هو بدافع محبة المسيح {أتحبني... ارع غنمي}

[٣٨] يوحنا ١٥: ١٣

الكتاب الثالث

١- الذين ظنوا أني تجنبت هذه الخدمة بسبب الكبرياء يسيئون إلى سمعتهم.

٢- لم أتجنب الكهنوت بسبب المجد الباطل.

٣- لو كنت قد تطلعت إلى المجد لأخترت بالأحرى هذا العمل.

٤- الكهنوت أمر رهيب، والخدمة فيه في العهد الجديد أكثر رهبة منه في العهد القديم.

٥- سلطان الكهنوت الكبير وكرامته.

٦- الرتب الكهنوتية بين عطايا الله العظمى.

٧- حتى بولس أمتلأ بالخوف عندما تأمل عظمة الخدمة!

٨- من بداخله (الكهنوت) يسقط غالبًا في فخ الخطية إلا إذا كان له العقل الراجح.

٩- أنه يسقط في المجد الباطل وثماره الشررة.

١٠- ليس الكهنوت هو السبب في هذه الشرور ولكنه ضعفنا نحن.

١١- أن شهوة الرياسة ينبغي أن تنزع من نفس الكاهن.

١٢-ينبغي أن يكون الكاهن حكيمًا جدًا.

١٣- إلى جانب الاحتمال الكبير هناك أشياء أخرى يجب توفرها في نفس الكاهن.

١٤- لا شيء يشوب نقاوة الفكر ويقظته أكثر من الغضب الأهوج.

١٥- ذهبي الفم يشير إلى صورة أخرى من الجهاد المملوء بالمخاطر.

١٦- كم يجب أن يكون عظيمًا، من عليه أن يواجه مثل هذه العواصف.

١٧- ما أكثر المخاوف في أمر تدبير العذارى.



ملخص: يتعجب ذهبي الفم كيف يتهمه الناس بالغرور لأنه هرب من الكهنوت، لأن هذا الاتهام يدل على عدم تقديرهم الكافي لهذه الكرامة العظيمة. لأن المغرور لا يهرب من هذا العمل إلا إذا كان ينظر إليه باحتقار. وهذا يسيء إليهم هم... فلو لم تكن نظرتهم للكهنوت مثل نظرتهم إلى أي عمل عادي، لما خطر ببالهم أن يلصقوا به هذه التهم.

﴿ ٢ ﴾

ملخص: يتابع ذهبي الفم دفاعه بقوله أنه لو سعى للشهرة لقبل الكهنوت، حيث يرى الكل أنهم فضلوه على كثيرين من الذين لهم جهادهم في الخدمة، في حين أنه – كما يقول هو عن نفسه – شاب حديث السن، لم يتخلص من إغراءات العالم إلى من وقت قصير.

﴿ ٣ ﴾

ملخص: ثم يقول أن هؤلاء لو عرفوا حقيقة الكهنوت ومدى المسئولية الرهيبة بالنسبة للمرشح أو الناخبين لما اتهموه بالغرور ولا بالمجد الباطل.

﴿ ٤ ﴾

إن نعمة الكهنوت، وإن كانت في الحقيقة تعطى على الأرض، ولكنها تعد بين الرتب السماوية. وهذا أمر طبيعي، لأنه لا إنسان، ولا ملاك، ولا رئيس ملائكة، ولا أي خليقة أخرى، بل البارقليط نفسه هو الذي أسس هذه الدعوة، وحث البشر، وهم بعد في الجسد ان يقوموا بخدمة الملائكة!! لذلك ينبغي على الكاهن الذي يقدس أن يكون طاهرًا، كما لو كان واقفا في السموات عينها في وسط تلك القوات.

إنها لمخيفة حقا، ومغزاها رهيب للغاية حتى هذه الأشياء التي كانت تستعمل قبل عهد النعمة، مثل الأجراس والرمانات والأحجار على الصدرة وعلى الأفود (ثوب كهنة اليهود) والمنطقة والتاج والرداء الطويل وقسط الذهب وقدس الأقداس والسكون العميق في داخله[٣٩].

ولكن إذا فحصنا الأشياء المختصة بعهد النعمة سوف نجد أنها، وإن كانت قليلة، ولكنها مخبئة ورهيبة حقا أكثر من مجد الناموس كما قيل {فان المجد أيضًا لم يمجد من هذا القبيل لسبب المجد الفائق}[٤٠].

فأنت عندما ترى الرب ذبيحًا وموضوعًا فوق المذبح، والكاهن واقفا يصلي على الذبيحة، وكان المصلين مصطبغون بذلك الدم الثمين، أتستطيع أن تقول أنك لا زالت بين الناس، وأنك واقف على الأرض!! ألست – على النقيض – قد انتقلت مباشرة إلى السماء، وطرحت عنك كل الأفكار الجسدية؟؟ ألست بروح متحررة من الجسد، وبفكر نقي تتأمل الأشياء التي في السماء!! آه! ما هذا العجب، وما مقدار حب الله للإنسان؟! إن الساكن في الأعالي مع الآب هو في هذه الساعة في متناول

[٣٩] خروج ٢٨: ٤ وما يليه.

[٤٠] ٢ كورنثوس ٣: ١٠

الكل، يعطي ذاته لمن يريدون أن يحتووه ويمسكوا به. وكل هذا يتم بعين الإيمان. هل ترى ان هذه الأشياء يمكن أن تحتقر؟ أو يمكن لأي أحد أن يتشامخ عليها؟!!

أتريد أن تعرف، من معجزة أخرى – عظم قدسية هذه الرتبة؟ تصور إيليا والجمع الغفير واقف حوله، والذبيحة موضوعة على مذبح الحجارة، وبقية الشعب قد صمتوا صمتا عميقا، بينما النبي وحده يرفع الصلاة، ثم نزول النار فجأة من السماء على الذبيحة: أنها أمور عجيبة تمت في رعب!!

والآن فلنتجاوز هذا المنظر إلى الطقوس الحالية، أنها ليست عجيبة للنظر فحسب ولكنها أكثر رهبة. حيث يقف الكاهن لا لينزل نارًا من السماء بل الروح القدس.

وهو يقدم طلبات طويلة لا ليأتي لهيب من فوق ليلتهم القرابين، ولكن لكي تضيء النعمة النازلة على الذبيحة نفوس الجميع ايضًا فيتألقون أكثر من الفضة المصفاة بالنار. من يجرؤ أن يحتقر هذا السر الكلي الرهبة إلا إذا كان مجنونا وأحمق؟!

أولا تعلم أن أحدًا من البشر لا يستطيع أن يتحمل هذه النار في الذبيحة؟!! فلو لم تكن مساندة نعمة الله عظيمة لفنى الكل!!

﴿ ٥ ﴾

لأنه لو أدرك أي شخص كم هو أمر جسيم أن يتمكن شخص، حال كونه إنسانا ومحصورا في اللحم والدم، أن يقترب إلى هذه الطبيعة المباركة الطاهرة، فانه حينئذ سوف يرى بوضوح ماهي الكرامة العظيمة التي تمنحها نعمة الروح للكهنة، إذ بواسطتهم تقام هذه الطقوس وغيرها، التي لاتقل عنها بأي حال فيما يختص بمجدنا وخلاصنا.

فان الذين يسكنون الأرض، ويقيمون فيها، يؤتمنون على خدمة الأمور السماوية ويأخذون سلطانا لم يعطه الله للملائكة ولا لرؤساء الملائكة!! لأنه لم يخاطب أحدًا منهم بالقول {كل ما تربطونه على الأرض يكون مربوطا في السماء. وكل ما تحلونه على الأرض يكون محلولا في السماء}[٤١].

إن حكام الأرض لهم في الحقيقة سلطان ليربطوا ولكن الجسد فقط. في حين أن هذا الربط يقع على الروح ويخترق السموات. وما يفعله الكهنة هنا على الأرض يصادق عليه الله من فوق، وما ينطلق به العبيد يؤيده السيد!! لأنه في الحقيقة سلطان سماوي لاشك، ذلك الذي أعطاه الله لهم عندما قال: {من غفرتم خطاياه تغفر له. ومن أمسكتم خطاياه أمسكت}[٤٢]. أي سلطان يمكن أن يكون أعظم من هذا؟!! {الآب... قد أعطى كل الدينونة للأبن}[٤٣] ولكن أراها كلها بين يدي هؤلاء الرجال بواسطة الابن، لأنهم يؤهلون إلى هذه الكرامة كما لو كانوا قد انتقلوا إلى السماء، وارتعفوا فوق الطبيعة البشرية، وتحرروا من الأوجاع التي نحن عرضة لها.

زد على هذا، إذا منح ملك هذه الكرامة لواحد من رعاياه، معطيًا إياه سلطانا ليلقي في السجن من يشاء ويطلق سراح من يشاء، فانه يصبح موضع حسد واحترام لجميع الناس، أما الذي أخذ من الله سلطانا عظيمًا بمقدار ما تسمو السماء عن الأرض، والروح عن الجسد، فانه يبدو للبعض انهم أخذوا كرامة ضئيلة حتى أنهم يمكن ان يتصوروا ان واحدًا من الذي اؤتمنوا على هذه الأمور يحتقر هذه العطية!! دعنا من جنون كهذا! لأنه جنون واضح أن نحتقر هذه الكرامة العظيمة. إذ بدونها لا يمكن أن نحصل على خلاصنا ولا على الأشياء الصالحة التي وعدنا بها الله. لأنه إذا كان أحد لا يمكنه أن يدخل

[٤١] متى ١٨: ١٨

[٤٢] يوحنا ٢٠: ٢٣

[٤٣] يوحنا ٥: ٢٢

ملكوت السموات دون أن يولد من الماء والروح، ومن لا يأكل من جسد الرب ويشرب دمه يحرم من الحياة الأبدية، وإذا كانت هذه الأمور تتم فقط عن طريق هذه الأيدي المقدسة، أعني أيدي الكاهن، فكيف يمكن لأي إنسان – بدون هذه الأمور – أن يهرب من نار الجحيم أو يربح هذه الأكاليل المعد للفائزين؟!!

﴿ ٦ ﴾

هؤلاء هم الذين بالحقيقة أؤتمنوا على آلام المخاض الروحي، والميلاد الذي يجري بالمعمودية. إننا بواسطتهم نلبس المسيح، وندفن مع ابن الله ونصير أعضاء في ذلك الرأس المقدس. فلا ينبغي أن نهابهم أكثر من الحكام والملوك فحسب، بل نكرمهم أيضًا أكثر من الوالدين. لأن هؤلاء ولدونا من دم ومن مشيئة الجسد، أما أولئك فهم وسيلة ميلادنا من الله، ذلك الميلاد الثاني الذي هو الحرية الحقيقية والبنوة بالنعمة.

ولقد كان للكهنة اليهود السلطان أن يشفوا الجسد من البرص، أو بالحري لا يشفوها بل فقط يفحصون الذي تطهروا. وأنت تعلم كم كانت وظيفة الكاهن موضوع منافسة في ذلك الوقت. أما كهنتنا فقد أخذوا سلطانا ليس على برص الجسد بل على نجاسة الروح لا ليعلنوا أنها طهرت بعد فحصها بل لينزعوها بالفعل. لذلك فالذين يحتقرون هؤلاء الكهنة يستوجبون اللعنة أكثر من داثان وجماعته، ويستحقون عقابا أشد قساوة. لأن أولئك رغم أنهم نسبوا لأنفسهم كرامة ليست لهم، إلا أنهم كانوا ينظرون إليه (الكهنوت) نظرة سامية. وقد برهنوا على ذلك بهذا الأشتياق الشديد الذي سعوا به إليه...

أعود مرة أخرى إلى النقطة التي بدأت منها: لقد منح الله للكهنة قوة أعظم من التي لوالدينا الجسدين، فالفرق بينهما في الواقع كبير كالفرق بين الحياة الحاضرة والحياة المستقبلة. لأن والدينا الجسديين ولدونا لهذا الحياة فقط، أما أولئك فلتلك الحياة الآتية. الأولون ليس في مقدورهم أن يمنعوا الموت عن أولادهم، أو يصدوا عنهم هجمات المرض، أما الكهنة فكثيرًا ما خلصوا نفسا عليلة أو إنسانا على حافة الهلاك. يوقعون على البعض عقابا شديدًا، ويمنعون الآخرين من السقوط. ليس فقط بالتعليم والإرشاد ولكن أيضًا بمعونة صلواتهم. لأن سلطان غفران الخطايا ليس فقط ساعة الميلاد الثاني، بل أيضًا بعد ذلك لهم هذا السلطان فقد قيل {أمريض أحد بينكم فليدع قسوس الكنيسة فيصلوا عليه ويدهنوه بزيت باسم الرب، وصلاة الإيمان تشفي المريض والرب يقيمه، وإن كان قد فعل خطية تغفر له}[٤٤].

كذلك نجد أن الآباء الجسديين، إذا حدث خلاف بين أولادهم وبين أحد من ذوي الرتب العالية في العالم، فلا يستطيعون أن يفعلوا لهم شيئا، أما الكهنة فانهم يصالحونهم، ليس مع الحكام والملوك بل مع الله نفسه عندما يحل غضبه عليهم.

﴿ ٧ ﴾

لم يحب أحد المسيح كما أحبه بولس، ولا أظهر أحد غيرة أعظم منه، ولا حسب أحد مستحقا لنعمه أكثر منه. ورغم كل هذه الإمتيازات لا يزال يتخوف ويرتعب أمام هذه المسئولية. إنه يقول: {أخاف أنه كما خدعت الحية حواء بمكرها هكذا تفسد أذهانكم عن البساطة التي في المسيح}[٤٥]. وأيضًا: {أنا كنت عندكم في خوف ورعدة كثيرة}[٤٦]... وهو الرجل الذي

---

[٤٤] يعقوب ٥: ١٤، ١٥

[٤٥] ٢ كورنثوس ١١: ٣

[٤٦] ١ كورنثوس ٢: ٣

اختطف إلى السماء الثالثة، وصار شريكا لأسرار الله التي لا ينطق بها[٤٧]، وتحمل ميتات كثيرة بعدد أيامه التي عاشها بعد أن آمن. وهو الرجل الذي لم يستعمل السلطان المعطى له من المسيح، لئلا يثقل على أحد من الذين آمنوا على يديه[٤٨]. فاذا كان هذا الذي عمل بأكثر من وصايا الله، ولم يطلب أبدا نفعه الشخصي بل نفع الذين يرعاهم، كان دائمًا هكذا مملوءًا بالخوف عندما تأمل جسامة المسئولية، فكيف يكون حالنا نحن الذين نسعى بشتى الطرق لنفع أنفسنا؟! الذين لم نفشل في أن نساك بأكثر من وصايا المسيح فحسب، بل غالبًا ما نتعدى الكثير منها!! أنه يقول: {من يضعف وأنا لا أضعف، من يعثر وأنا لا ألتهب}[٤٩]؟!

هكذا يجب أن يكون الكاهن! وليس هكذا فقط، لأن هذه أمور بسيطة إذا قورنت بما سأقوله... أنه يقول: {كنت أود أن أكون أنا نفسي محرومًا من المسيح لأجل أخوتي، أنسبائي حسب الجسد}[٥٠]. إذا تجاسر أحد أن ينطق بهذا الكلام... فأنه يلام بحق إذا شرع في الهروب، أما إذا كان أحد ينقصه هذا السمو مثلي، فإنه يستحق الكراهية ليس إذا تجنب هذه الخدمة بل إذا قبلها.

لأنه إذا كما بصدد إختيار إنسان لرتبة حربية، والذين لهم حق الترشيح يرشحون نحاسًا أو صانع أحذية او واحدًا من ذوي مثل هذه الحِرف، ويضعون الجيش بين يديه، فإني لا ألوم هذا الإنسان البائس إذا أخذ في الهروب، وعمل كل ما في وسعه لكي يتجنب هذا الارتباك العظيم...

فوق هذا، إذا كلفت بقيادة سفينة تجارية بها بحارة كثيرون، ومحملة بالبضائع الغالية... فإني سوف أرفض هذا العرض فورًا... وذلك لئلا أغرق السفينة. إذن إذا كانت الخسارة مادية، والخطر يمتد فقط إلى الموت الجسدي، فلا يلوم أحد الذين يتصرفون بحكمة، ولكن إن كانت السفينة في طريقها إلى السقوط، ليس في المحيط ولكن في هاوية النار، والموت الذي ينتظرها ليس هو إنفصال الروح ولكنه الهلاك الأبدي، فهل تغضب على لأني لم ألق بنفسي في شر عظيم كهذا؟!!

﴿ ٨ ﴾

من أجل هذا أتوسل إليك أن تتركني وشأني، فإني أدري بضعف نفسي وحقارتها، وأدرك مقدار عظمة هذه الخدمة ومشقة العمل... فالرياح التي تعصف بنفس الكاهن هي أشد من الأنواء التي تهيج البحر.

﴿ ٩ ﴾

ملخص: وأول هذه المصاعب هي صخرة المجد الباطل الخطيرة، التي تعيش فيها حيوانات مفترسة كثيرة، قادرة على أن تمزق حياة الإنسان يوما بعد يوم. هذه الحيوانات المفترسة التي تتربى على المجد الباطل هي الغضب، واليأس، والحسد، والخصام، والنميمة، والإدانة، والكذب، والرياء، والدسيسة، والغضب دون وجه حق، والفرح بأخطاء الزملاء، والحزن لنجاحهم، وحب المديح، وشهوة الكرامة التي (في الواقع أكثر من غيرها) تقود النفس البشرية للهلاك، والفتاوى الفاشة لإرضاء النزوات، واحتقار الفقراء، وتملق الأغنياء وخوف العبيد، والبعد عن صراحة الرأي، ومجافاة الحق، والاتضاع

[٤٧] ٢ كورنثوس ١٢: ٤

[٤٨] ٢ كورنثوس ١١: ٩، ١ تسالونيكي ٢: ٩

[٤٩] ٢ كورنثوس ١١: ٢٩

[٥٠] رومية ٩: ٣

المصطنع، والامتناع عن التبكيت والتوبيخ، أو بالحري استعمالها بشدة مع الفقراء في حين السكوت الكلي مع ذوي السلطان... كل هذه الوحوش وغيرها ترعى فوق صخرة حب المديح، وويل لمن يسقط فيها فانه يستعبد لها حتى يفعل مالا يليق[٥١].

﴿ ١٠ ﴾

هل الكهنوت مسئول عن هذه الشرور؟ أن مثل هذا القول جنون!! فالرجل الحكيم لا يتهم السيف بالقتل، والخمر بالسكر، ولا القوة بالاغتصاب، ولا الشجاعة بالتهور، ولكن يلوم الذي يستخدمون مواهب الله استخدامًا سيئا فيجلبون على انفسهم عقاب الله.

أن الكهنوت بكل تأكيد سوف يديننا ان لم نحسن استخدامه. فليس الكهنوت سببًا في تلك الشرور، ولكننا نحن الذين ندنسه ونحتقر من شأنه حين نعطيه لمن لا يستحقونه، أو للذين يقبلونه سريعًا دون أن يفحصوا ذواتهم ويدركوا جسامة هذه الرتبة...

ترى من أين نشأت هذه المتاعب الكثيرة في الكنائس؟ أني أعتقد أن المصدر الوحيد لها هو الطريقة العشوائية في اختيار الرعاة، فالرأس يجب أن يكون أكثر أعضاء الجسم قوة حتى يضبط النزوات الشريرة التي تصدر من سائر أعضاء الجسد. ولكن إذا كان الرأس نفسه ضعيفا، وعاجزًا عن صد الهجمات الوبائية، فانه يزداد ضعفا فوق ضعف، وبهلاكه يهلك الجسد كله...

وهناك صفات أخرى كثيرة يجب أن يتحلى بها الكاهن. فقبل كل شيء يجب أن يطهر نفسه تمامًا من شهوة الحصول على هذه الرتبة. لأنه إذا حدث أن اشتهى هذه الكرامة، فانه حالما يصل إليها فان شهوة حب الكرامة تزداد اضطرامًا، حتى إذا استعبد لها فانه يتردى في شرور كثيرة مثل التملق والمداهنة، ويخضع لأمور دنيئة... وهذا هو سبب المذابح التي عمت الكنائس، والخراب الذي حل بالمدن، بسبب التشاحن على الرئاسة.

﴿ ١١ ﴾

ولا يظن أحد أني أعارض القديس بولس الرسول حين يقول: {أن ابتغى أحد الأسقفية فيشتهي عملا صالحًا} (ا تي ٣: ١). فاني لا أقول ان اشتهاء الأسقفية أمر ردئ، ولكن الردئ هو رغبة التسلط وحب الرئاسة. فهذه الشهوة هي التي ينبغي أن يرتفع الإنسان عن مستواها، ويطهر نفسه منها تمامًا، وألا يسمح لها من البداية ان تتسلط عليه حتى يكون حرًا في تصرفاته. ومن لا يشتهي سلطان هذه الخدمة فانه لا يخشى حرمانه منها، وهكذا يستطيع ان يتصرف في كل شيء بحرية مجد أولاد الله. أما الذين يرتعدون خوفا من ان يعزلوا من الكهنوت، فهم يقاسون عبودية مرة تجرهم إلى شرور كثيرة، وتقودهم غالبًا إلى ما يغضب الله والناس.

لهذا ينبغي ألا تقع النفس في مثل هذه الأمور... وكما أنه في الحروب ترى الجنود الشجعان يحاربون في أصرار ويستشهدون في شجاعة هكذا يجدر بمن نال هذه الخدمة ان يكرس حياته من اجلها أو يتنحى عنها كما يحق للمسيحي، علمًا أن التنحي لا يقل في مجازاته عن الوفاء بالخدمة. لأنه متى تعرض كاهن لمثل هذا الموقف ويتنحى لكي يتجنب الخضوع

---

[٥١] أسهب ذهبي الفم في وصف سلطة النساء وتدخلهن في الخدمة، وقد عانى هو نفسه كثيرًا من اودوكسيا زوجة الامبراطور اركاديوس.

لأمر لا يليق بكرامة هذه الخدمة فانه بتنحية يعاقب مقاوميه عقابًا شديدًا، كما أنه ينال هو أجرًا عظيمًا... لأن الكتاب يقول: {طوبى لكم إذا طردوكم وعيروكم وقالوا فيكم كل شر من أجلي كاذبين. افرحوا وتهللوا لأن أجركم عظيم في السموات}[٥٢]. إن هذا في الحقيقة هو حال من يتسبب أقرانه في تنحيته أما بعامل الحسد، أو مجاملة لآخر، أو بسبب الحقد، أو لدافع شرير آخر ـ ولكن متى كانت هذه التنحية من الخصوم فلست في حاجة إلى اقامة البرهان على ما يناله من فائدة بسبب شرهم.

يليق بنا إذن أن نكون على حذر من كل جهة وأن نحترس حتى لا تتسرب سرًا أي شرارة من نار هذه الشهوة – شهوة رئاسة الكهنوت – ومن كان متحررًا أصلا من هذه الشهوة ينبغي أن يبقى على تحرره منها بعد وضع اليد عليه. أما من كان أحد قد اقتنى بداخله هذا الوحش المفترس – وحش شهوة الرئاسة – قبل أن يصل إلى هذه الكرامة فانه بعد رسامته يزج بنفسه في جحيم داخلي يصعب وصفه. ولأن هذه الشهوة قد استولت علي بدرجة كبيرة، ولخوفي منها ومن غيرها، فقد أسرعت إلى الفرار. لأنه كما أن المحب كلما اقترب من محبوبته ازداد ولهه وعذابه بينما متى بعدت عنه خمد هيامه، هكذا الحال لمن يروم لسلطان الكهنوت فانه كلما سعى إليه إزداد شر هذه الشهوة إلى درجة غير محتملة، ومتى كف عن السعي وراءه فان الرغبة فيه تخبو وتنطفئ.

﴿ ١٢ ﴾

فلا يمكن الاستخفاف بهذه الشهوة، فهي وحدها قد تكون لامتناعي عن قبول هذه الرتبة. ومع هذا فهناك شهوة أخرى لا تقل عنها. فما عسى أن تكون هذه الشهوة؟ ينبغي أن يكون الكاهن سديد الرأي عميق الافراز، يمتد بصره الثاقب إلى كل جهة، لكونه مسئولا – لا عن نفسه فحسب – بل عن نفوس كثيرة. أما أنا فكسول ومتروع وبالجهد أستطيع أن أخلص نفسي، ولعلك تقر بهذا وإلا كنت لمحبتك تستر نقائصي. دعك من الحديث عن الأمور المختصة بالصوم والسهر والنوم على الأرض والتدريبة الجسدية القاسية الأخرى، فأنت تعلم مدى تقصيري فيها... وحتى إن كنت قد مارست هذه الفضائل واتقنتها، فهي لن تنفعني في ممارسة هذه الوظيفة وذلك لكسلي وتهاوني الحالي، لأن هذه الفضائل قد تنفع انسان يعيش في قلاية و لايهتم إلا بخلاص نفسه... وأما بالنسبة إلى رجل تقدم ليحمل مسئوليات شعب كبير ويعني بكل شخص فيه مناية فردية، فكيف يعمل على نموهم أن يكن هو على درجة عالية من قوة الإرادة وصلابة العزيمة .

﴿ ١٣ ﴾

وليس بغريب أن أضيف إلى ما ذكرت لونا آخر من قدرة النفس على الجد والمثابرة. فقد يكون الحرمان من الطعام والشراب والفراش الوثير امرًا مقدورًا عليه عند أناس كثيرين وخاصة بالنسبة لمن تعودوا شظف الحياة ونشأوا عليها منذ نعومة أظفارهم، بل وعند كثيرين غيرهم... فان ممارسة هذه التدريبات والتعود عليها يجعل منها أمورًا هينة. أما احتمال الشتائم، والإهانات، والألفاظ الجارحة، والكلمات النابية، والتعبيرات الباطلة من الأدنياء، والتعنيف الذي يطلق جزافا سواء من الحكام أو المحكومين... كل هذه الأشياء لا يقدر كثيرون على احتمالها.

وقد يكتسب البعض قدرة على احتمال التدريبات الجسدية التي اسلفنا ذكرها، لكنهم يضعفون أمام الأمور الأخيرة، فيصبحون أكثر وحشية من الحيوانات الضارية. امثال هؤلاء على وجه الخصوص ينبغي أن نقصيهم عن رتب الكهنوت.

---

[٥٢] متى ٥: ١١، ١٢

لأنه ان كان الكاهن غير ناسك أو زاهد، فانه لن يفيد الكنيسة كثيرًا، أما سرعة الانفعال والغضب فهي تؤذي نفس صاحبها والذين يعاشرهم على السواء... والله لم يتوعد الذين لا يصومون ولا الذين لا يزهدون، بينما أنزل الويلات على من يغضبون باطلا وتوعدهم بالحكم ونار جهنم (متى ٥: ٢٢)... وكما أن من يحب المديح الباطل يضيف وقودًا إلى نار جهنم بقدر عدد الأنفس التي صار رئيسًا عليها، هكذا الذي لا يستطيع أن يتحكم على غضبه أو يمسك نفسه في حواره مع الناس بل ينقاد وراء انفعالاته، كيف يكون حاله إذا اؤتمن على رعاية قطيعه وهو كالوحش المفترس الذي يستثيره الناس لأي سبب، لن يعيش مثل هذا مثل هذا في سلام، فضلا عن أنه يصيب النفوس التي أؤتمن على رعايتها بالأذى.

﴿ ١٤ ﴾

فليس هناك ما يعكر صفو الفكر أكثر من الغضب والاندفاع بلا ترو، ذلك لأن الكلام الموجع يهيج السخط (أمثال ١٥: ١) فتصاب النفس بالضلام، فلا تميز بين العدو والصديق، أو بين الصالح والطالح، فالكل أمامه سواء. وهي تحتمل كل ما يقابلها من شر وأذى حتى تكره شهوة الغضب... لأن الغضب شهوة تطفى على النفس فتقلب جميع موازينها وتشوش كل أفكارها... وهو يدير صاحبه إلى الغرور والكبرياء ومعاداة الناس وكراهيتهم لغير ما سبب، كما يحمله على التصرفات الطائشة وتوجه الإساءة إلى الغير وأشياء أخرى كثيرة مماثلة. لأن النفس تكون قد انزلقت وراء حمو الغضب حتى لم تعد هناك ضوابط تكبح جماحها.

باسيليوس: لم أعد أحتمل منك أكثر من هذا التهكم لأنه لا يخفى على أحد أنك قد تساميت فوق هذه النقائص.

ذهبي الفم: أتريد أن تدفعني إلى هذه النار وأن تثير الوحش المفترس[٥٣] الذي لا زال هادئا؟ ألا تعلم اني لم أفتن هذه العادات عن فضيلة في نفسي بل من اعتزالي وحبي للأنفراد؟ فمن كانت هذه الحال حاله فالأفضل له ان يقنع بوحدته أو مصاحبة صديق أو أثنين، حتى ينجو من نار الغضب التي لا يستطيع أن يتجنبها أن انغمس في كل هذه الاهتمامات... فهو حينئذ لا يجر نفسه وحدها بل آخرين كثيرين إلى حافة الهلاك ويبعدهم عن جادة الصواب. لأنه من شأن الرعية التشبه بالراعي والتمثل به ومحاكاته في تصرفاته. فكيف يمكن للراعي أن يوقف غضب الرعية ان كان هو يشتعل بنار الغضب؟ ومن من الرعية يمكن أن يكون وديعًا وهو يرى الراعي سريع التهيج؟ فنقائص الرعاة يعصب اخفاؤها، بل حتى البسيط منها يظهر بوضوح. فالمجاهد ما دام معتكفا بداره لا ينافس ولا يصارع أحدًا، فان أحدًا لا يهتم بنقائصه مهما عظمت، لكن إذا نزل إلى حلبة المصارعة انكشف حاله وافتضح أمره. هكذا الذين يعيشون في عزلة فان وحدتهم تكون قناعًا يخف عيوبهم حتى إذا ظهروا في الحياة العامة وخلعوا ثوب الوحدة الذي كان يسترهم فان نقائصهم تظهر في الحال وتنكشف نفوسهم. وكما أن فضائل كثيرين أفادت غيرهم وحولتهم إلى مجاهدين يتشبهون بهذه الفضائل، هكذا مناقص البعض قد تدفع المتراخين إلى إتيان ما هو ليس من الفضيلة، وإلى التراخي في عمل الخير. من أجل هذا ينبغي تشع نفس الرؤساء بالضياء في كل جانب، لكي يحل السلام والمسرة في نفوس المستضيئين بهم. فهفوات الرجل العادي حين تعمل في الظلام تهلك صاحبها فقط وضررها لا يتعداه، وأما زلة الشخص المعروف لدى الجميع فان ضررها يصيب الكثيرين، فيتمادى الساقطون في شرهم، وييأس الساعون نحو التوبة. وفضلا عن هذا فان أخطاء غير المعروفين حتى لو انكشفت فلا تؤثر في أحد... أما الذي يشغلون مراكز ظاهرة فلأنهم على مرأى من الجميع فأخطاؤهم لها أثر كبير مهما هان أمرها، ذلك لأن الناس يحكمون على الخطية ليس بمقدارها بل بمنزلة مرتكبها. لهذا ينبغي أن يتخصن الكاهن تمامًا بسلاح متين من اليقظة

---

[٥٣] أي شهوة حب الرئاسة

والمراقبة الدائمة لأسلوب حياته، حتى لا يجد فيه الراصد موضعًا ضعيفا يطعنه فيه طعنة قاتلة. لأن جميع المحيطين به ينتهزون فرصة لطعنه واسقاطه، ليس أعداؤه ومنافسوه فحسب، بل حتى كثيرون ممن يدعون صداقته.

لهذا ينبغي أن يلبس الكهنة قوة من الله، كأولئك الفتية القديسين الذين ألقوا في آتون النار في بابل (دانيال ٣). لأن الكهنة لا يلقون في نار وقودها من حطب أو قار بل ما هو أمر وأقسى... فهم لا يتعرضون لنيران مادية بل يحاصرهم لهيب من الحسد من كل جانب، معرضًا حياتهم لاختبارات أشد قسوة من نيران آتون الفتية الثلاث... فبقدر ما يدبر الكاهن حياته تدبيرًا حسنا في كل مجال، فانه يكون بعيدًا عن المكائد. أما أن تهاون في أمر قد يبدو تافهًا (بما أنه انسان في هذا العالم الكثير الأخطار) فلن تعفيه فضائله وأعماله الطيبة الأخرى من ألسنة الناقدين، بل أن هذه الهفوة الصغيرة تطغى على كل ما سواها. فكل الناس يتأهبون للحكم على الكاهن، ليس باعتباره بشرًا من لحم ودم، بل كملاك تحرر من كل أسباب الضعف البشري. وكما أن الجميع يخشون الحاكم المستبد ويتملقونه طالما كان يستمتع بسلطانه الذي يعجزون عن مقاومته، حتى إذا ضعف هذا السلطان انقلب عليه الذين كانوا من قبل يدعون صداقته، فيعلنون له عدم احترامهم ويناصبونه العداء ويهاجمونه في مواطن ضعفه بغية عزله من منصبه... هكذا الحال مع الكاهن، فمن كانوا يوقرونه ويحترمونه أيام رئاسته وسلطانه، إذا لمسوا فيه أي ضعف سارعوا إلى عزله، ليس كعزل الحاكم المستبد فحسب بل أسوأ بكثير. وكما أن الحاكم المستبد يخشى من حاشيته وحراسه، هكذا الكاهن يخشى أيضًا من المقربين إليه والمشاركين له في خدمته... بل يجزع من هؤلاء أكثر من سواهم، لأنه ليس من يشتهي رئاسته ويتطلع إليها أكثر منهم. وهم بحكم قربهم منه وتعرفهم على أخص شئونه، فأنهم أول من يشعرون بهفواته قبل غيرهم. وإذا افتروا عليه فلن يعوزهم الدليل لاثبات افتراءاتهم، فيعظمون ما صغر من الهفوات، ويدينون ضحيتهم ناقضين قول الرسول: {إن كان عضو واحد يتألم فجميع الأعضاء تتألم معه. وان كان عضو واحد يكرم فجميع الأعضاء تفرح معه}[٥٤].

أفيرضيك إذن أن تلقى بي في آتون هذه الحروب؟... وهل تعتقد أن لدي الكفاءة لمثل هذه المعركة؟... من أعلمك بهذا ومتى؟... إن كان الله هو الذي شهد لك بذلك فأرني النبي الذي تنبأ بهذا وأنا أخضع... فان لم تستطع، وكان رأيك في قائمًا على مجرد فكر بشري، فأرجو ان تقلع عن هذا الوهم... فليس أقدر مني على الحكم في أموري لأنه {مَن مِن الناس يعرف أمور الإنسان إلا روح الإنسان الذي فيه}.

فلو أني قبلت هذه الكرامة لجعلت من نفسي وممن يزكوني إضحوكة... لأن اشتهاء هذه الرئاسة لا يثير الحد وحده، بل الكثير من الشرور التي تدفع الكثيرين إلى محاربة من نالوها... وكما أن محبي المال يحزنهم طول أعمار أبائهم، هكذا فان أمثالهم واشباههم لا يسعدهم طول بقاء الكاهن في منصبه. ولهذا فانهم عوض أن يقتلوه، لأن القتل جريمة، فانهم يسعون إلى تنحيته ليخلفوه في كرسيه، متطلعين إلى الفوز بالكرامة التي ينعم بها الكاهن.

﴿ ١٥ ﴾

صورة أخرى من صور الكفاح المحاطة بمخاطر عدة أعرضها عليك.

إذا ألقيت نظرة على الانتخابات العامة حيث تتم عادة التزكية للكهنوت، سوف ترى اتهامات كثيرة تنسب إلى الكاهن بعدد من يرعاهم. فالاكليروس جميعهم ينقسمون إلى فرق وشيع حتى ليتعذر على {مجلس الشيوخ}* أن تتحد كلمتهم فيمن

---

[٥٤] ١ كورنثوس ١٢: ٢٦

* لا يمكن على وجه التحديد معرفة من هم ناخبو الأسقف في ذلك الزمان. فمن المحتمل أن يكونوا خليطا من الكهنة ورؤساء الشمامسة. وقد أشار إليهم ذهبي الفم في موضع آخر باعتبارهم (آباء) وفي مكان آخر (رجال كبار) وها هو يسميهم هنا (مجلس الشيوخ).

يختارون أسقفا، إذ ينحاز كل منهم إلى جانب أحد المرشحين، وذلك لأن لكل منهم وجهة نظر مختلفة، غير ملتزمين بفكر واحد يضعونه نصب عيونهم وهو اختيار اللائق والبحث عن النفس الفاضلة، بل يتطلبون مؤهلات أخرى لنوال هذه الكرامة... فيقول بعضهم مثلا: لننتخب هذا الرجل لأنه ينتمي إلى أسرة عريقة. ويقول آخرون: لا بل ننتخب هذا لثرائه وغناه فهو لن يحتاج إلى موارد الكنيسة. وفريق ثالث يدعو لمرشحه لأنه: انسلخ من معسكر خصومه. ثم يتحمس آخرون لتزكية رجل لمجرد أنه تربطه بهم روابط شخصية وثيقة، أو لانتمائه إلى موطنهم، أو لأن المرشح يجيد الملق، وفي كل هذه الحالات لا يفكر أحد فيمن يكون حقا جديرًا بهذه الكرامة. أما أنا فلا أؤمن بصلاحية هذه المعايير في الترشيح الكهنوتي، إذ أنه حتى لو كان المشرح على درجة عالية من التقوى – وهذا أمر هام في الكهنوت – فأني لا أستطيع أن أغامر بترشيحه استنادًا إلى تقواه فحسب إذا لم يقتن مواهب أخرى.

وأنا أعرف كثيرين فرضوا على انفسهم تدريبات شاقة، وعذبوا أجسادهم بأصوام طويلة، ولكن لأنهم لا يتحملون ألا مسئولية أنفسهم فقط فيكونون مرضيين أمام الرب، ويومًا بعد يوم يضيفون إلى فضائلهم فضائل أخرى جديدة، حتى إذا خرجوا إلى الحياة العامة واضطروا إلى التدخل لتصحيح جهالات الشعب، وضح عدم صلاحيتهم لهذه المهمة الكبيرة، حتى أن بعضهم يتخلى عن أسلوب حياة الفضيلة التي كان ينتهجها... وهكذا يخسرون أنفسهم دون أو يربحوا آخرين.

أما من قضى أكثر حياته في أول درجة من درجات الكهنوت حتى بلغ سن الشيخوخة، فلا يسوغ ترقيته إلى درجة أعلى لمجرد احترام سنه... طالما أنه لم ينم في النعمة والتقوى رغم بلوغه سن الشيخوخة. لست أقول هذا لأقلل من قدر الشيخوخة، أو لأغلق الباب أمام المرشحين لهذه الرتبة من بين الرهبان. (فهناك نماذج من هؤلاء كانوا موفقين توفيقا كبيرًا) – بل ما أود أن أبرزه هو أنه ليس النسك في حد ذاته أو التقدم في السن وحدهما كافيين لنوال الكهنوت.

وهناك أيضًا من يسوقون مزاعم أخرى أكثر سخفا... فالبعض يمنحون درجات كهنوتية حتى لا ينضمون إلى صفوف الخصوم... وآخرون يمنحونها أتقاء لشرهم. فهل هناك تعد على الحق أكثر من هذا؟ أن الأشرار الملوثين بالاثم يكرمون لأجل أمور كان ينبغي أن يحتقروا لأجلها!! ويرتقون إلى الكهنوت لأجل أمور كانت كافية لإقصائهم عن الكنيسة!!

أيجوز لنا بعد هذا أن نتساءل عن سبب غضب الرب علينا، ونحن نقلد هذه الدرجات المقدسة الكريمة لرجال أشرار أو غير صالحين فيفسدوها!؟

كثيرًا ما كنت أسخر من الحكام العلمانيين لأنهم في توزيع المناصب لا يقيمون وزنا للقيم الخلقية بقدر اهتمامهم بالمال والجاه والنفوذ... حتى تطرق إلى سمعي تفشي مثل هذه الحماقات في شئون الكنيسة أيضًا، فلم أعد استنكرها على العلمانيين. وقد لا يكون مستغربًا أن أهل العالم الذين يحبون المديح ويفعلون كل شيء سعيًا وراء الربح أن يرتكبوا مثل هذه الأخطاء... أما الذين يدعون التحرر من هذه الأهواء فقد شابهوا أهل العالم، ورغم جهادهم من أجل السماويات فقد اصبحوا يتصرفون كما لو كان الأمر متعلقا بشراء حقل أو ما شابه ذلك... وقد يقيمون أناسًا غير مستحقين في تلك الأمور السماوية، التي من أجلها أخلى المسيح الكلمة ذاته آخذا شكل العبد وبصق عليه وتألم ومات في الجسد... وليت الأمر كان يقتصر على هذا فحسب، بل أنهم يضيفون أمورًا أخرى أكثر شرًا... فانهم يختارون ليس فقط غير المستحقين بل يبعدون أيضًا الاكفاء المستحقين للخدمة، وكأنهم في كلتا الحالتين يريدون هدم سلام الكنيسة، وكان سلوكهم الأول لم يكن كافيًا لإثارة غضب الله فيديرون أمورًا أخرى أشر منها. وفي رأي إن إبعاد الرجال النافعين لنقحم في مكانهم غير المستحقين لهو شر كبير...

أفلا تستحق هذه الأفعال مجازاة بنيران متقدة أضعاف ما أنذرنا به الكتاب المقدس؟؟

ومع هذا فان هذه الآثام يحملها عنا من لا يشاء موت الخاطئ مثلما يرجع ويحيا. حقا ما أعجب محبته للبشرية وما أعظم رحمته!! ان المنتمين إلى المسيح هم الذين يكسرون وصايا المسيح أكثر من أعدائه وخصومه... ومع هذا فهو لعظم رحمته ما زال يعاملهم بمحبة ويدعوهم إلى التوبة. المجد لك يا رب. يارب لك المجد. ما أوسع محبتك وأعمقها! وما أعظم غنى

احتمالك للبشر!! أن الرجال الذين أكرمتهم ورفعتهم من العدم والهوان إلى كراسي الكرامة يستخدمون ما أكرمتهم به في اهانتك!! ويتجاسرون على المقدسات، ويرفضون الغيورين ليفسحوا للأشرار مجالا لإرضاء أهوائهم بغير خوف أو وجل!!

وإذا سألت عن علة هذه الشرور فستجدها مماثلة لما سبق أن ذكرته، فجذورها واحدة وأصلهما واحد وهو (الحسد) الذي يظهر في صورة متعددة. فهم يبعدون رجلا من قائمة المرشحين للكهنوت لأنه حديث السن... ويبعدون آخر لأنه لا يجيد فن المديح، ويرفضون ثالثا لأنه أغضب كيت وكيت من الناس... ورابعًا لإرضاء شخص كبير تحرص على ترشيح شخص معين، ويبعدون خامسًا لأنه رفيق وحنون أما السادس فلأنه عنيف مع الخطاة، والسابع لسبب مشابه... وهكذا لا يعدمون علة ينسبونها إليه ان شاءوا... حتى انهم قد يعتبرون الثراء سببًا لرفض صاحبه إذا لم يجدوا فيه علة يحسبونها ضده فهم لا تعوزهم القدرة على إيجاد المبررات والعلل... الأمر الذي يجعل المرء لا يتسرع في قبول هذه الكرامة بل يتسرع يتأنى ويتروى.

وهنا قد يتساءل أحد: ماذا يصنع الأسقف الذي يتوجب عليه أن يواجه مثل هذه العواصف؟.. وكيف يقدر أن يتصدى لمثل هذه الحملات؟؟

فلو أن الأسقف دبر الأمور تبعًا للمبادئ المستقيمة لهاج أعداؤه وخصوم مرشحه وقاوموهما وأثاروا المنازعات وكالوا التهم لهم ويظلوا هكذا حتى يتم لهم اقصاؤهم واحلال مختاريهم محلهم. وهذا هو مثل ما يحدث عندما يكون في السفينة قراصنة دأبوا على تدبير المؤمرات والخدع ضد الربان وملاحيه... فاذا آثر الاسقف الاستسلام وقدم مرشحين غير مستحقين فان يجلب على نفسه غضب الله، وهل هناك أسوأ من هذا!!.. ومع هذا فانه حتى لو قبل هذا الوضع فلن تسلم علاقته بهم من مشاكل أخرى اشر من الأولى، لأنهم سيتضافرون مما ليشكلوا قوة أوسع سلطة وأكثر نفوذا... وكما أن الرياح إذا تصادمت تثير المحيط الساكن وترفع أمواجه حتى تطيح بالسفن التي كانت تتهادى فوق سطحه... هكذا حال الكنيسة إذا احتضنت الأشرار، فان سلامها يتبدد ليحل محله الشر والهوان.

﴿ ١٦ ﴾

فأي نوع من الرجال ينبغي أن يكون من يواجه مثل هذه الأعاصير، ويتصدى لمعوقات الخدمة العامة؟ ينبغي أن يكون عزيز النفس في غير كبرياء، حازمًا لكنه رحيم، إداريًا بغير دكتاتورية، منصفا بغير مجاملة، متواضعًا في غير خنوع، صارمًا ورقيقا معًا... حتى يمكنه التغلب على تلك المصاعب. وينبغي أن يقدم على الكهنوت بثقة من هو أهل له، وبنفس الأصرار ينبغي ان يبتعد عنه غير المستحق. حتى لو اتفق الجميع على اختياره، واضعًا نصب عينيه هدفا واحدًا هو بناء الكنيسة بلا تحيز لصديق أو عدو.

لعلك توافقني الآن أني تصرفت بحكمة عندما رفضت قبول كرامة الكهنوت!.. ومع هذا فأني لم أستطرد بعد في ذكر كل مبرراتي، إذ لم يزل بعد هناك أسباب أخرى أريد أن أذكرها...

فالضرورة تقتضي لمن هو مقبل على شق هذا الطريق أن يتدبر كل شيء بدقة قبل أن يضع يده على المحراث، ولعلك تتساءل لماذا؟؟... ذلك لأن من يعرف كل شيء بوضوح لن يستغرب أي أمر يواجهه فيما بعد. فهل تريد أن نتدارس موضوع خدمة الأرامل؟... أم العناية بالعذارى؟.. أم المتاعب القضائية؟. أن كلا من هذه الموضوعات له مشاكله ومخاوفه الخاصة.

فلنبدأ بالموضوع الذي يبدو للكثيرين أن أسهل الموضوعات الثلاثة – وهو موضوع خدمة الأرامل – الذي يظن المهتمون به أن لا يتعدى الاهتمام بتدبير الانفاق عليهن مع أنه في الحقيقة أبعد من هذا بكثير، لأن الاهتمام بالأرامل يحتاج

إلى دراسات فاحصة لمعرفة من تستحق منهن أو تسجل بسجلات الكنيسة* لأنهن أن أحصين وسجلت بغير تمييز ضمن سجل الأرامل فان هذا يكون سببًا لشرور كثيرة... فمنهن من دمرن بيوتا وهدمن زيجات، بل ومنهن من اتهمن بالسرقة وابتزاز الأموال وغير ذلك من الأعمال المشينة. فمساعدة مثل هؤلاء النساء من موارد الكنيسة يثير غضب الله ويعرض المسئولين للدينونة ويطفئ حماس الغيورين الذي يحبون عمل الخير. لأنه من يرضى أن ينفق المال الذي أوقفه للسيد المسيح على نساء يتسببن في الإساءة إلى اسم المسيح؟.

لأجل هذا ينبغي الاستقصاء والتحري الدقيق حتى لا تقدم المساعدات إلى أمثال تلك الأرامل اللاتي يستطعن أن يعلن أنفسهن... وفضلا عن هذا فان الأمر يحتاج إلى جهد آخر لنظمن للمحتاجات موردًا ثابتا من المال، لأن الفقر الاجباري لا يجعل صاحبه يشكر أو يحتمل.

فالحاجة إذا كبيرة إلى حكمة الغيورين وحماسهم لسد كل فم وقطع الطريق على أي احتجاج.

وقد اعتاد غالبية الناس متى رأوا إنسانا يحتقر المال أن يرشحوه لأمانة الصندوق... ومع هذا فلست أظن أن هذه الفضيلة الروحية وحدها كافية – مع أنها تأتي مقدمة الفضائل التي ينبغي التحلي بها لأنه بغيرها يصبح الإنسان ذئبًا خاطفا لا راعيًا صالحًا يحافظ على ما أؤتمن عليه – فهناك فضيلة أخرى ينبغي أن تقترن بها وهي فضيلة الصبر والاحتمال التي هي وراء كل فضيلة، تقود الإنسان إلى ميناء السلام. فالأرامل فئة من الناس – بسبب فقرها وتقدم سنها وميلها الطبيعي – تنهمك في الثرثرة، دائمة الشكوى والتنهد والنحيب من اجل أمور كانت تستوجب الشكر والحمد، وهكذا يتحتم على المشرف على أمورهن أن يحتمل كل هذه الأمور بروح طيبة، وألا يحتد هلى ما يثرنه في غير موضعه، لأنه هذه الفئة تستحق أن يرثى لمصائبهن لا أن يزدري بشقائهن... من أجل هذا فأن الحكيم، لما رأى في الطبيعة البشرية من كبرياء وحب المال، وأحس بطبيعة الفقر وشدة تأثيره إلى الحد الذي يجعل أكثر الناس تعففا يطرح عن وجهه الحياء طلبًا لما يحتاج إليه، مما يدعو المرء إلى الصبر على احتمال المتاعب التي تصدر عنهن، فلا يصير لهن عدوًا بل يحرص على مصادقتهن ومساعدتهن – لهذا ينصح الحكيم بأن يكون الإنسان ودودًا أليفا مع صاحب الحاجة قائلا: {أمل أذنك إلى المسكين وأجبه برفق ووداعة} (سير ٤ : ٨). ويخاطب القادر على تحمل ضعفات الآخرين فينصحه قبل اغداق العطايا بأن يعامل صاحب الحاجة بسماحة الوجه ورقة اللفظ وتواضعه... لأن الإنسان حتى وان كان لا يستولي على مال الأرامل لكنه يكيل لهن الاهانات والتقريع ويحتد عليهن، فان عطاياه لن تخفف من حدة اليأس وكآبة الفقر، بل أن سوء معاملته لهن سيضاعف من حزنهن وألمهن. فالمحتاجات رغم اضطرارهن إلى رفع الحياء تحت إلحاح الجوع العوز ألا أنهن يتألمن في قرارة نفوسهن لما صار إليه حالهن.

فجدير بمن يتصدى لخدمتهن أن يدرب نفسه على تحمل الآلآم، ليس فقط لكي لا يزيد حزنهن بغضبه عليهن بل لكي يخفف عنهن بما يقدمه لهن من توجيه ومواساة.

وكما ان المرء إذا أهين لا يحس بقيمة ما يقدم له من إعانات مالية مهما كثرت بسبب الجرح الذي يلحقه من سوء المعاملة، هكذا فانه من الناحية الأخرى إذا عومل معاملة رقيقة وقدمت إليه العطية ومعها كلمة مشجعة، فانه يسر ويتعزى حتى أن قيمة هذه الهبة تتضاعف بسبب الأسلوب الذي قدمت به. ولست أقول هذا من عندي فقد استعرته من صاحب الحكمة السابق الاستشهاد بكلامه فهو يقول: {يا بني لا تقرن الصنيعة بالملام ولا العطية بكلام التنغيص. أليس الندى يبرد الحر

---

* منذ العصر الرسولي عنيت الكنيسة برعاية الأرامل (١ تي ٥: ٩، ١٠) وجعلته واجبًا يستحق الأداء بحرص لئلا تستمع غير المستحقات بالخدمات التي تقدم لهن. وفي عهد ذهبي الفم كان هناك (نظام للأرامل) يختلف عن النظام البسيط الذي كان يميز العهود الأولى والذي كانت تنذر فيه الأرامل أنفسهن للخدمة الدينية. لقد حثت الكنيسة بقوة الامتناع عن الزواج الثاني، وكثير من النساء كن يتظاهرن بنذر أنفسهن للترمل لكي ينتفعن من مساعدات الكنيسة، بينما كان سلوكهن لا أخلاقي.

هكذا الكلام أفضل من العطية. اما ترى أن الكلام أفضل من العطية وكلاهما عند الرجل المنعم عليه سواء} (سير ١٨: ١٥ – ١٧).

ولا يكفي أن يكون المشرف على الأرامل رقيقا واسع الصدر فحسب بل ينبغي أن يكون ايضًا محنكا في تدبير المال وإدارته... إذ لو أعوزته هذه المهمات لآلت مصالح المساكين إلى الضياع. فمنذ زمن ليس ببعيد أؤتمن أحد المسئولين عن هذه الخدمة على ثروة طائلة، ومع أنه لم ينفقها على نفسه فانه لم يصرف منها كذلك على المحتاجين إلا في حالات استثنائية، وطمر الجانب الأكبر من الثروة في الأرض حتى قامت حرب وقعت فيها الأموال بين يدي الأعداء.

فالأمر يحتاج إذن إلى تبصر، بحيث لا تترك موارد الكنيسة لتتكدس أو تتبدد بل يتم توزيعها في الوقت المناسب...

ولا تغفل مقدار ما يحتاج إليه إضافة الغرباء ورعاية المرضى من أموال كثيرة وحكمة من القائمين بها. فكثيرًا ما يزيد الانفاق في هذه الأبواب عما ينفق في خدمة الأرامل، بحيث يحتاج المهتم بهذه الخدمة إلى مهارة في تدبير الموارد المالية وحكمة في توجيهها... وينبغي أن تكون هذه الخدمة مصحوبة بالاجتهاد والغيرة ذلك لأن المرضى قوم يصعب ارضاؤهم وهم قابلون للاستسلام والتراخي، فإذا لم يتم التعامل معهم بحذر ودقة كبيرة فان أي تجاهل بسيط قد يضر بالمريض ضررًا كبيرًا.

﴿ ١٧ ﴾

أما رعاية العذارى فالخوف والجزع عليهن يكون أكبر بمقدار مالهن من منزلة. لأن هذا القطيع يتميز بصفات أسمى مما للآخرين – ومع هذا فانه حتى بين هذه الفئة الطاهرة يندس عدد لا يحصى من الساقطات مما يزيد حزننا... فالعذراء تكافح لبلوغ أهداف أسمى وتجاهد في سبيل الفلسفة العليا [٥٥]، وتمثل حياة الملائكة على الأرض. ورغم كونهن في الجسد إلا أنهن يأتين أعمالا يمكن أن تنسب للقوات السرمدية. وفضلا عن هذا فلا ينبغي أن تتردد العذراء على أماكن كثيرة او غير ضرورية، وغير مسموح لها ان تتكلم كلامًا عشوائيًا أما الألفاظ الخارجة فلا ينبغي ان تخدش سمعها. ومن ثم فهي تحتاج إلى رعاية كبيرة، لأن عدو الخير والطهارة رابض دائمًا يتربص لهن، يلتمس افتراس من تتهاون منهم أو تنزلق...

وإلى جانب هذا فما أصعب ما يعانينه من مقاومة طبيعتهن وغرائزهن البشرية. وعلى العموم ينبغي أن تهيئ العذراء نفسها لحرب ذات وجهتين، أحدهما تهاجمها من خارج والأخرى تضغط عليها من داخل. من أجل هذا كان خوف المشرفين على العذرى كبيرًا، والخطر الذي يواجهونه بسببهن أعظم... فان كانت الفتاة التي تعيش بمفردها تؤرق والدها لانشغاله بالمحافظة على بتوليتها، أو لضياع زهرة شبابها (بغير زواج)، أو بسبب عدم انجابها أو لكراهية زوجها لها... فكم يكون ألم من يهتم بأمور ليست كهذه بل أعظم منها متى عرض لهذه البتول عارض!! فليس المجنى عليه هنا انسانا بل المسيح ذاته، وما تلام عليه الفتاة ليس عقمًا بل الشر الذي يؤدي إلى هلاك النفس، لأن {كل شجرة لا تصنع ثمرًا جيدًا تقطع وتلقى في النار} (متى ٣: ١٠)... فمن يرفضها العريس السماوي لا يكفي أن تعطى كتاب طلاق وتنصرف لحالها بل تعرض نفسها لعذاب أبدي[٥٦].

---

[٥٥] أي حياة التأمل الروحي وهي غير حياة الرهبانية. ويرجح أن ذهبي الفم كان يتحدث في هذا الفصل عن العذارى المكرسات لخدمة الكنيسة واللاتي كن يعشن مع آبائهن (ان كانوا أحياء) أو مع آباء الكنيسة. وان أول اشارة إلى حياة النذيرات اللاتي يعشن في مساكن منعزلة جاءت في منتصف القرن الرابع. ويقال أن القديس باسيليوس أنشأ واحدًا من هذه البيوت.

[٥٦] هنا يسترسل ذهبي الفم في وصف متاعب خدمة العذارى استرسالا طويلا بصورة فضلنا حذفها.

أما قضايا الأمور المدنية للأسقفية فهي حافلة بعدد لا يحصى من المشاكل والمصاعب التي تحتاج إلى وقت طويل ومجهود ضخم ينوء به القاضي العلماني... لأن مهمة الأسقف هي تحري العدل واثبات الحقوق لأصحابها. فليست المشكلة هي مشكلة ضيق وقت أو مصاعب أو معوقات، بل المخاطر التي تترتب على التهاون. فقد حدث أن بعض الأخوة الضعفاء لما وقعوا في أمر ولم يجدوا من يعينهم أو يساندهم تركوا ديانتهم، وكثيرًا من المظلومين حقدوا على من تخلى عن مساعدتهم بمقدار حقدهم على من ظلمهم، غير مقدرين لما قد يكون هناك من معوقات أو ضيق وقت أو حدود لسلطان الكاهن أو أي شيء آخر من هذا القبيل... فهم قضاة بغير رحمة لا يقبلون عذرًا إلا انقاذهم مما حاق بهم من ظلم. فاذا لم يتمكن الكاهن من هذا فلن يفلت من لومهم مهما حاول تبرير نفسه باعتذارات شتى.

وبمناسبة الحديث عن الرعاية والملامة، دعني اكشف سببًا آخر للملامة. فالأسقف إذا لم يقم يوميًا بجولة واسعة من الزيارات قد تزيد عما يقوم به إنسان بلا مشغوليات، فقد يؤدي الأمر إلى عواقب عديدة لا يمكن التنبؤ بها. فليس المريض وحده بل حتى الاصحاء يطمعون في زيارة الأسقف. وليس ذلك منهم عن تدين أو تقوى بل كثيرًا ما يكون سعيًا وراء الظهور والكرامة., وإذا حدث ان تكررت زيارات الأسقف لرجل غني بغية صالح الكنيسة فسريعًا ما تلصق به تهمة التملق.

ولماذا اتحدث عن الرعاية والزيارات؟ بل أن مجرد اصطحاب الأسقف لشخص معين قد يعرضه للوم ويسبب له مزيدًا من الضيق. وحتى عيون الأسقف يحتاج إلى التحكم في نظراتها، ذلك لأن الشعب ينتقد أبسط حركاتها وسكناتها. وأيضًا هيئة وجهه وابتسامته... واحد يقول: لقد ضحك مع فلان من الأعماق... وآخر يقول: لقد رحب بفلان ترحيبًا وفرح بينما لم يعرني سوى التفاتة عابرة. فمن ذا الذي يستطيع أن يتصدى لكل هذه الحملات، مالم يكن على درجة عالية من الصلابة؟؟.. وكيف يمكن أن ينجو من لومهم؟...

وناهيك عن الحزن الذي يعانية الأسقف حيت تلجئه الضرورة إلى قطع أحد أفراد الرعية من الكنيسة أو حرمانه من التناول... إذ ليت الأمر يقف عند حد الحزن بل أن أضرارًا أخرى قد تنشأ عن هذا التصرف... فقد يخشى من احتمال سقوط الشخص المقطوع فيما ذكره القديس بولس الرسول: {يبتلع مثل هذا من الحزن المفرط} (٢ كورنثوس ٢: ٧).

لهذا كان التدقيق الشديد مطلوبًا في هذه المواقف أيضًا حتى لا يصير ما هو نافع سببًا لخسارة أعظم. فمهما ارتكب ذاك من أخطاء بعد قطعه فان الطبيب الذي يحسن استخدام مبضعه في علاج مريضه ينبغي أن يشترك معه في العواقب.

فالكاهن يتوقع حسابًا ليس عن خطاياه التي ارتكبها بمعرفته فحسب بل عن الخطايا الأخرى التي سقط غيره فيها بسببه. وإن كنا نرتعد عند حسابنا عن أفعالنا الشريرة واثقين أننا لن نستطيع الهروب من تلك النار التي تنتظرنا في العالم الآتي فكم وكم يصيب الإنسان الذي هو عنيد أن يقدم حسابًا عن أخطاء الآخرين!!

وقد يشهد لي بصحة ما أقول، قول بولس الرسول... لا بل قول المسيح له المجد على لسان بولس: {أطيعوا مرشديكم واخضعوا، لأنهم يسهرون لأجل نفوسكم كأنهم سوف يعطون حسابًا} (عبرانيين ١٣: ١٧) فهل الخوف من هذا الوعيد يمكن أن يكون هينا؟

لا يسوغ هذا مطلقا، وان ما قتله فيه الكفاية لاقناع أشد الناس قسوة وشكا، واني ما امتنعت عن قبول الكهنوت كبرياء مني أو سعيًا وراء المجد الباطل... بل أن ما دعاني إلى الفرار منه هو الخوف على سلامتي وتقديرًا لخطورة المنصب.

الكتاب الرابع

١. الذي يدعون أنفسهم يتورطون في قبول هذه الخدمة المقدسة مثلهم مثل الذين يسعون إليها لمصالح شخصية – كلاهما سيقدم حسابًا عن هذه الخطبة في اليوم الأخير.
٢. أما الذين رسموا عير المستحقين حتى لو كانوا لا يعلمون شيئا عن أخلاقهم وطبائعهم يكونون شركاء لهم في العقوبة.
٣. ينبغي أن يتميز الكاهن بمواهب عالية في الخطابة.
٤. يجب أن يكون مستعدًا للمجاوبة عما يثيره كل الخصوم يهودًا كانوا أو أمميين او هراطقة.
٥. يجب أن يكون ماهرًا في النقاش والحوار.
٦. وهي الموهبة التي تفوق فيها بولس الرسول بنوع خاص.
٧. حتى أنه صار مضرب الأمثال في كلماته أكثر من معجزاته.
٨. وهو يريد لنا ان نتفوق أيضًا في هذا المجال.
٩. لأن عجز الكاهن في هذه الموهبة يؤدي حتمًا إلى خسران النفوس المؤتمن عليها.



انصت باسيليوس لهذا، وبعد وفترة وجيزة أجاب قائلا:

لو كنت قد بدأت بطلب هذه الدرجة الكهنوتية لكان لخوفك هذا وجهه المعقول، لأن من يسعي لنوال هذه الدرجة فهو يعترف ضمنا بصلاحيته لها. فاذا لم يوفق فيما بعد في حمل الأمانة فلن يقبل منه أي احتجاج او اعتذار عن تقصيره بحجة عدم خبرته، لأنه كان الأجدر به أن يمعن التفكير في الأمر قبل التسرع في قبول الرسالة التي رحب بها من قبل بكامل ارادته وتقديره للأمور، بحيث لم يعد يقبل منه القول متعللا: لقد أخطأت بغير اختياري... وأسأت على غير ارادتي إلى نفس هذا أو ذاك من الشعب. لأن الديان سيجيبه قائلا: بما أنك كنت تعلم أنك غير مستحق لهذه الوظيفة وانك غير قادر على تحمل مسئولياتها بغير لوم فلماذا كنت إذا متسرعًا ومتلهفا لتتقلد أمورًا تفوق مقدرتك؟ ومن أجبرك على هذا؟ هل حاولت التهرب أو الفرار فأرغمت قسرًا وعلى غير ارادتك؟؟

أما أنت تسمع مثل هذا الكلام لأنك لم تفعل شيئا من هذا يمكن أن تدان عليه. وواضح للجميع أنك لم تكن متلهفا أبدًا، وما سعيت مطلقا لهذه الكرامة على غير ما فعل الكثيرون...

ذهبي الفم: لو لم يكن هناك حقا عقاب ينتظرني بسبب حملي مسئولية رعاية خراف المسيح بغير استحقاق، فهناك ما هو أهم بالنسبة إلي وهو أن هذه الأمور نفسها التي أؤتمنت عليها من المسيح هي أقسى من كل عقوبة لما تنطوي عليه من إظهار حقارتي وعدم أمانتي.

إذا لماذا كنت أتمنى أن تكون الأمور كما ووصفتها؟؟؟

لقد تمنيت هذا بالحقيقة من أجل هؤلاء الأشقياء التعساء (لأنه هكذا ينبغي أن أدعو الذين لم يحسنوا أداء واجبات هذه الوظيفة مهما أدعو آلاف المرات أن الضرورة قادتهم إلى ذلك وان خطيتهم خطية جهل) حتى يتمكنوا من الخلاص من النار التي تطفأ والظلمة الخارجية (متى ٢٥: ٣٠) والدود الذي لا يموت (مرقس ٩: ٤٤) والعقاب الذي يجعل نصيبهم مع المرائين (متى ٢٤: ٥١).

لكني لا أستصوب معك هذا الرأي... لأن الأمر ليس كما تذكر بأي حال من الأحوال... ولعلي أستطيع أن أقدم لك مصداق قولي... فالكهنوت عند الله أجل وأكرم من الملك.. فشاول لم يسع إلى الملك حتى صار ملكا وانما كان يرعي قطيعا من الحمير ثم تقدم إلى النبي يسأل عنها... فحدثه النبي عن الملك... ورغم هذا فانه لم يسع إلى الملك بجشع، مع أن ما سمعه كان من نبي، بل تراجع وصلى إلى الله كي يعفيه من الملك قائلا: {من أنا؟ ومن هو بيت أبي؟} (١ صم ٩: ٢١) فماذا حدث فيما بعد؟؟... فحين أساء استخدام الكرامة التي وهبها له الله... هل أنقذته كلماته الأولى من غضب من أقامه ملكا؟؟... وهل كان في مقدوره أن يبرر نفسه أمام شكوى صموئيل النبي فيقول: {هل سعيت أنا وراء الملك وصولجانه؟... لكن تمنيت أن أحيا حياة عادية هادئة، وأنما دفعتني أنت إلى هذا المنصب الكبير... ولو بقيمته في حياتي الأولى الوضيعة لما تعرضت لهذه المصادمات، لأنني لو بقيت كواحد من أفراد الشعب المغمورين لما أرسلت في تلك المهمة الصعبة، ولا كان الله تعالى أوكل إلى محاربة عماليق وما كنت سقطت في هذه الخطية}. لكن كل هذه الحجج واهية، وهي ليست هكذا فحسب بل هي خطيرة أيضًا لأنها تثير غضب الله... لأن من يرفعهم الله في الكرامة لا يجوز لهم أن يتعللوا بعظم الكرامة ليتعذروا بها هما يرتكبوه من خطايا، بل الأجدر بهم أن يجعلوا من تكريم الله لهم حافزًا لمزيد من الجهد والعمل. فمن يرتكبون الخطايا متعللين بما نالوه من كرامة غير عادية قائمًا يقابلون محبة الله الحالية بالتعدي والاهمال والبعد عن الله. فلا يليق بنا أن يكون لنا مثل هذا الفكر، أو أن نسقط في مثل حماقاتهم، بل الأجدر بنا أن نتاجر ونربح في هذه العطايا وأن تكون أقوالنا وأفكارنا مقدسة.

فلنترك موضوع الملك ونعود إلى الكهنوت فهو موضوع خطابنا – فان عالي الكاهن ما سعى إلى هذا المركز السامي، لكن لما سقط في الخطية فماذا نفعه من كونه لم يطلبه؟؟ ومالي أقول أنه لم يطلبه بل لو كان يريد أن يهرب منه لما كان هذا ممكنا لأن الضرورة كانت تحتم عليه أن يقبله لأنه كان من سبط لاوي، وكان ملتزما بأن يقوم بواجبات هذه الرئاسة التي توارثها عن آبائه، ولم يكن قادرا أن يتركها لغيره... غير انه مع ذلك عاقبه الله عما ارتكبه أبناؤه من خطايا (١ مل ٤).

وهارون أول كاهن لليهود، الذي من أجله كلم الرب موسى مرارًا، فلما لم يقدر أن ينهض بمفرده على إيقاف شر هذا الشعب الكبير – ألم يشرف على الهلاك لولا شفاعة شقيقه ووساطته الذي حول غضب الله؟؟ (خروج ٣٢: ١٠، ١١). وما دمنا نتحدث عن موسى فمن الجيد أن نبرهن على صدق قولنا مما حدث معه. فهذا النبي القديس كان أبعد ما يكون عن التمسك بقيادة اليهود حتى أنه توسل إلى الله أن يعفيه منها، إلى حد أن أثار سخط الله عليه بالحاحه في الاعتذار (خروج٤: ١٣) ليس في ذلك الحين فقط بل بعد ذلك أيضًا لما رقى إلى هذه الرياسة فانه تمنى الموت حتى يخلص من حكم هذا الشعب وقال {اقتلني قتلا ان وجدت نعمة في عينيك فلا أرى بليتي} (عدد ١١: ١٥) موسى هذا... ما الذي حدث معه لما أخطأ في البرية بسبب عدم وجود الله؟؟ (عدد ٢٠: ١٢)... هل شفع رفضه المتكرر (للخدمة) في تبرير خطيئته أو نوال صفح الله؟؟ لما إذن حرم من أرض الموعد؟ أليس من أجل هذه الخطية التي حرمته من التمتع بالبركات التي نالها أتباعه؟؟ بل أنه بعد متاعب وآلام كثيرة، وبعد تشرد لا يوصف ومعارك دموية وانتصارات في الحروب، مات موسى دون أن يرى الأرض التي تحمل في سبيل بلوغها الأهوال والمشقات... وبعد الذي عاناه من عواصف ورياح لم يفز بسلام الميناء وهدوئه...!!

أرأيت كيف أنه لايوجد ما يمكن لأحد أن يعتذر به عن خطئه سواء من سعى إلى هذه الكرامة أو من قدمع إليها غيره؟!! لأنه إذا كان الذين اختارهم الرب بذاته لهذه المهمة الكبيرة لم يخلصوا من العقاب ولم ينقذهم شيء منه، فالجميع سواء: هارون وعالي وحتى هذا النبي القديس صانع العجائب الذي فاق حلمه جميع من على وجه الأرض (عدد ١٢: ٣)... الذي خاطب الرب كما يكلم الصديق صديقه، هذا الرجل لذي يعجز اللسان عن وصف عظمته!!

لقد اختار الرب يهوذا وأحصاه ضمن تلاميذه القديسين ومنه كما للباقين بركة الخدمة الرسولية مثل باقي الرسل... ليس هذا فحسب بل ميزه عن الآخرين بأن أعطا أمانة الصندوق (يوحنا ١٢:٦)... فماذا حدث معه؟؟ تنكر فيها بعد للرسالتين... فخان سيده الذي ائتمنه على الكرازة، وأساء استخدام المال الذي كان حري به أن يحتقره – أتراه أفلت من العقاب لكونه رسولا؟؟ كلا، بل لقد كان هذا عينه سببًا فيما جلبه على نفسه من عقاب أعظم وجزاء عادل. لأنه لا يليق بنا أن نستعمل الكرامات المعطاة لنا من الله في معاندته ومقاومته عوض أن تكون لمرضاته ومسرته.

أما الذي ينتظر أن يفلت من العقاب العادل لكونه قد نال كرامة مضاعفة فانه يشبه أحد أولئك اليهود غير المؤمنين الذي بعد ما سمع قول يسوع المسيح: {لو لم أكن قد جئت وكلمتهم لم تكن لهم خطية، وأما الآن فليس لهم عذر في خطيتهم... لو لم أكن قد عملت بينهم أعمالا لم يعملها أحد غيري لم تكن لهم خطية (يوحنا ١٥: ٢٢ – ٢٤)... يلوم المخلص ومنقذ البشرية قائلا: ولم أتيت وخاطبتنا؟ ولماذا صنعت هذه الآيات؟ هل لكي تعاقبنا أكثر؟؟... لكن هذه هي كلمات الجنون وعدم الافراز. لأن الطبيب الأعظم لم يأت ليحكم عليك بالموت بل جاء ليشفيك من مرضك... ويخلصك من أسقامك... وأنت بمحض ارادتك تهربت من بين يديه، فاحتمل إذا ما يصيبك من عقاب، فقد كان في مقدورك ان تبرأ من أسقامك السابقة لو أنك استسلمت لعلاجه...

من أجل هذا لايكون عقابنا قبل اكرام الله لنا وبعده متساويًا بل يكون العقاب بعد نيل المواهب أشد، لأن الذي لا ينصلح بعد الخير الذي يناله فانما يستحق عقابا أكثر. لهذا فقد اتضح ان حجتك هذه واهية وهي لا تنفع لأن تخلص من يلجأ إليها بل تعرضه للمسئولية أكثر. لهذا فلنلجأ إلى وسائل أخرى للنجاة.

باسيليوس: خبرني عن هذه الوسائل، لأني لم أعد أستطيع الآن أن أملك نفسي وقد أفزعتني بأقوالك هذه...

ذهبي الفم: لا تغتم ولا تنزعج هكذا... أرجوك وأتوسل إليك ألا تضعف إلى هذا الحد. فبينما ننجو نحن الضعفاء بالفرار من هذه الوظيفة المقدسة فانه يمكنكم أنتم الأقوياء ان تخلصوا بالاعتماد على نعمة الله، وتجنب كل مالا يتناسب مع هذه الكرامة ولا مع الله معطيها... ولا يجب علينا أن نلتمس الأعذار لمن لم يسعوا إليها، لأن هؤلاء أيضًا ليس لهم عذر. لأنه في تقديري لو دعانا إلى هذه الخدمة ربوات من الناس فالأجدر ألا نصغي إليهم بل نختبر قلوبنا أولا، ونتفحص الأمر من جميع جوانبه تفحصًا دقيقا قبل أن نذعن لإلحاحهم. فمن يتجاسر على بناء منزل إلا إذا كان مهندسًا..؟! أو يتحمل مسئولية معالجة مريض إلا إذا كان طبيبًا محنكا..؟! ولو اضطره إلى ذلك الناس فانه يعتذر ولا يخجل من ان يعترف بجهله. فمن تؤتمن على الاهتمام بنفوس الكثيرين أفلا يجلس ليختبر نفسه اولا؟... ولو أنه قبل هذه الخدمة المقدسة لإلحاح الناس فكيف يهرب وإياهم من الشقاء والهلاك الذي ألقوا بأنفسهم فيه؟. وقد كان يمكنه خلاص نفسه، أما الآن فقد أشرك معه آخرين في الهلاك... فمن أين له أن يأمل في الخلاص... أو ينال الغفران؟! ومن سيتشفع لأجله؟ هل هؤلاء الذي أكرهوه على قبول الوظيفة؟ بل من الذي سينقذهم في تلك الساعة الرهيبة وهم في حاجة إلى من يشفع فيهم للنجاة من الجحيم؟!!

وحتى لا تظن أني بأقوالي هذه أخيفك بل أعرض عليك حقيقة الأمر، اسمع ما يقوله القديس بولس الرسول إلى تيموثاوس تلميذه وابنه الحبيب: {لا تضع يدًا على أحد بالعجلة ولا تشترك في خطايا الآخرين} (١ تيموثاوس ٥: ٢٢)...



وكما أنه لا يجدي المختارين أعتذارهم قائلين: أننا لم نقدم على هذه الوظيفة من تلقاء أنفسنا... هكذا لا ينفع من أقاموهم قولهم أنهم ما كانوا يعرفون شيئا عمن تمت سيامتهم، بل أن هذا الأمر نفسه يكون سببًا في دينونة أعظم لأنهم قدموا من يجهلونهم... فاذا يجدر بمن يزكي كاهنا أن يتحرى الدقة في اختياره، كما يجب على المرشح أن يدقق في الأمر قبل قبوله... ذلك لأنه حتى لو انخدع الناخبون بتقرير مضلل فالمرشح فلا يمكنه أن يتعلل قائلا: أنا أجهل نفسي... كما يقول الآخرون. وبما أنه عتيد أن يعاقب عقابًا أشد مما سيلقاه مختاروه، أفلا يجدر به أن يدقق في فحص نفسه أكثر من تدقيقهم هم معه!! وحتى لو أرغموه جاهلين أمره فحري به أن يستوقفهم ليكشف لهم أسبابه وضعفاته بحيث لا يتركهم ينخدعون... وهكذا إذ يكشف عدم استحقاقه ينجو من تبعات عظيمة بهذا المقدا.

ثم لنتأمل كيف أنه في مجالات فنون الحرب والتجارة والزراعة وشتى نواحي الحياة، لا يقوم الفلاح بقيادة سفينة، ولا يقوم الجندي بحرث الحقل، أو يقوم ربان السفينة بقيادة جيش... فلماذا لا يفعلون هذا؟ أليس لوضوح الأمر عندهم، وأدرك مدى المخاطر التي يتعرضون لها بتدخلهم في أمور لا دراية لهم بها؟ حسنا فإن كانت الخسائر التافهة تستلزم كل هذا التدقيق في الفكر، وتجعلنا نرفض الإذعان لأي ضغط أو إجبار، فكم تكون حاجتنا إن كان العقاب أبديًا كما هو الحال لمن لا يعرفون كيف يدبرون شئون الكهنوت ويتجاسرون على قبول. أفنقحم أنفسنا في خطر داهم ثم نتعلل بأننا أجبرنا على ذلك...؟! إن الديان العادل لن يقبل منا مثل هذا الاعتذار... ولهذا ينبغي أن نبدي حرصًا في الأمور الروحية أكثر من العالمية. أما نحن فيبدو اننا لا نظهر هذا الحرص اللازم إذ أخبرني: لو افترضنا في رجل أنه بناء ماهر بينما هو في الحقيقة غير ذلك – ثم كلفناه ببناء بيت فأطاع وحين استعمل خامات البناء أتلف الخشب والحجر، وبعد أن بنى البيت تساقط أنقاضًا... أترى أنه يكفي لهم الرجل ان يعتذر بان اضطر إلى ذلك إرضاء لمن أرغمه، وأنه لم يتقدم لهذا العمل طواعية؟! لقد كان الأحرى به أن يرفض الأمر حتى لو دعاه الناس. فان كان من يتلف الحجارة والخشب فقط لا ينجو من العقاب... أفيفلت منه من يهلك النفوس التي هي هياكل الله، او من يبدد بغير اكتراث ويظن أن اجبار الغير له ينقذه من المسئولية... على أني تغافلت عن حقيقة انه لا يمكن لإنسان أن يجبر آخر على مالا يريده... ولكن إن سلمنا جدلا بانه قد وقع تحت

ضغوط شديدة ومكائد شتى خبيثة حتى وقع في المصيدة... فهل ينقذه هذا إذا من العقاب؟ فأنا أطلب إليكم ألا نخدع انفسنا وندعي باننا نجهل ما هو واضح وجلي حتى للأطفال الصغار... فلا شك أن الادعاء بالجهل لن يفيدنا يوم الحساب، لأنه كيف يتفق أنه لما يكم هناك من يستدعيك إلى الخدمة كنت تعتقد أنك ضعيف، ثم لما وجد من هم على استعداد لتقديمك إلى هذه الكرامة صرت فجأة كفءا، ووجدت نفسك صالحًا لها؟؟ أنه لأمر مثير للسخرية. لأجل هذا يعلمنا الرب أن من يريد أن يبني برجًا ينبغي أن يجلس أولا ويحسب النفقة هل عنده ما يلزم لإكماله. لئلا يضع الأساس ولا يقدر أن يكمل، فيبتدئ جميع الناظرين يهزأون به (لوقا ١٤: ٢٨-٢٩). وان كان عقاب هذا الرجل قد اقتصر على السخرية والاستهزاء به، فان الأمر سيكون بالنسبة إلينا دودًا لا يموت، ونارًا لاتطفأ (اشعيا٦٦: ٢٤) وصرير أسنان، وظلمة خارجية، وقطع، ونصيب مع المرائين (متى ٢٤: ٥١)...

فليس الأمر متعلقا بتدبير قمح أو شعير، ثيران أو غنم أو شيء آخر من هذا القبيل، بل أنه يختص بجسد المسيح ذاته. لأن كنيسة المسيح هي – كما يقول بولس الرسول – جسد المسيح (كولوسي ١: ١٨، ٢٤) ويجدر بمن أؤتمن عليها أن يقودها ليحفظ لها السلامة والعزة، وأن يرصد سائر الجهات حتى لا يصيبها دنس أو غضن (أفسس ٥: ٢٧) أو يشينها شيء يشوه بهاءها وقوتها – وأن يحرص بقدر ما يستطيع من قوة بشرية على أن يحفظ على ما يليق بهامتها المقدسة عديمة الفساد. وإذا كان الراغبون في بلوغ مستوى من اللياقة البدنية يحتاجون إلى الأطباء والمدربين الرياضيين وإلى التغذية السليمة والمران الدائم وألوف أخرى من القواعد... فكم بالحري يكون الأمر مع الذين يهتمون بالجسم الذي لا يصارع مع لحك ودم وإنما مع قوات غير مرئية – فكيف يمكنهم أن يحفظوه سليم معافى؟؟...



أو تجهل أن هذا الجسم معرض لأمراض وحملات بأكل من جسدنا هذا اللحمي... وأنه سريع الفساد بطيء الشفاء؟ وان الذين بيدهم علاج الأجساد لديهم أدواء قد تم اكتشافها، وآلات مختلفة وقوائم تغذية مناسبة للمرضى، وكثيرًا ما كانت طبيعة الهواء في حد ذاتها كافية لشفاء المريض. وهناك أمثلة لحالات نال فيها المريض قسطا ملائمًا من النوم فأعفى الطبيب من بذل أي جهد أما هذا الجسم فلا يصلح معه شيء مما ذكر، إذ لا توجد إلا وسيلة واحدة لشفائه وهي التعليم بالكلمة. فهذا هو السلاح الوحيد وقائمة الغذاء الوحيدة والجو المناسب الملائم للشفاء... فبقوة التعليم يمكن أن تنهض النفس إذا سقطت...

ومتى مرضت النفس بمرض التعاليم الزائفة والمعتقدات الدخيلة فنحتاج حينئذ إلى قوة الكلام والأقوال، ليس من أجل حراسة نفوسنا فحسب بل لمجابهة الأعداء. لأنه وأن تقلد الإنسان سيف الروح ودرع الإيمان إلى حد صنع المعجزات، وبواسطة هذه العجائب يسد أفواه المخالفين السفهاء، ففي ذاك الوقت قد لا يحتاج المرء كثيرًا إلى قوة الكلمة... ومع هذا فانه حتى في عصر المعجزات لم تكن الكلمة بغير فائدة بل ضرورية وحيوية. فبولس الرسول نفسه رغم أنه كان محل اعجاب في كل مكان بما يصنع من معجزات، كان يلجأ إلى التعليم والحوار. ويحثنا رسول آخر من بين التلاميذ على اكتساب هذه المقدرة لنكون {مستعدين دائمًا لمجاوبة كل من يسألكم عن سبب الرجاء الذي فيكم} (١ بط ٣: ١٥). وما كان اجماع الرسل على ترك أمور العناية بالأرامل لاسطفانوس إلا لكي يتفرغوا هم لـ (خدمة الكلمة) (اعمال ٦: ٤) ونحن نحتاج إلى أن نسلك نفس النهج، إلا إن كانت لنا القدرة على صنع المعجزات وهو الأمر الذي لم يبق لنا منه شيء بعد أن صار العدو يحاصرنا بمحاربته من كل جانب...

من ثم ليكن هدفنا أن تسكن كلمة المسيح في داخلنا (كولوسي ٣: ١٦) لأننا لا يجب أن نتأهب لنوع واحد من المعارك. فهذا القتال متعدد الجبهات، ويشترك فيها اعداء كثيرون، وليست أسلحتهم واحدة ولا أسلوبهم في الحرب واحدًا. فيتعين على من يحاربهم أن يكون عالمًا بخداعهم وحيلهم... صحيح أنه في الحروب العسكرية يقوم كل فرد بعمل من الأعمال وفاء بالواجب المعين الذي يتولاه، لكن ليس الأمر في حروبنا هذه فمن يترجى القوة والغلبة عليه أن يتفهم كل فنون الحرب وخدعه، لأن إبليس يعرف جيدًا كيف ينفذ إلى مهاجميه من أي جهة تترك بغير حراسة ويختطف الخراف سرًا، لكن الأمر يختلف أن أدرك أن الراعي قد أحكم حراسة كل النواحي وعرف كل حيله ومزامراته. لأجل هذا ينبغي ان نتحجب من كل جانب لأن المدينة المحصنة التي تحيط بها الأسوار تستهزئ بمحاصريها وتعيش في أمان، فان صنع العدو في سورها ثغرة مهما صغرت فلا تنفع شيئا بعد ذلك ما تبقى من الأسوار، حتى وإن بقيت قائمة بإحكام. هذا الحال في مدينة الله متى شملتها يقظة راعيها وحكمته وحاصرتها كالحصن المنيع من كل جانب فجميع خطط الأعداء ومكائده تبوء بالفشل... فما النفع ان تصدى الراعي لبدع اليونانيين إذا كان اليهود يقتنصون ضده من خرافه؟ وما جدوى أن يتغلب عليهما كليهما ليسقط فريسة بين برائن المانويين Manicheans [٥٧]؟ وإذا برهن على تفوقه عليهم يأتي أصحاب مذهب القضاء والقدر فيتسللون إلى داخل القطيع. ولأنه لا يمكن احصاء كل بدع الشيطان، فانه مالم يكن الراعي بصيرًا بدحضها جميعًا فان الذئب سيستغر احداها ليدخل ويلتهم معظم القطيع.

وفي الحروب العادية نتوقع الفوز بالنصر ومكابدة الهزيمة من الجنود الصامدين في ساحة القتال. أما في الحروب الروحية فالأمر جدًا مختلف، لأنه كثيرًا ما تكون الحرب مع قوم لم يحاربوا أصلا أو يشتركوا في المعركة على الاطلاق ولا تحملوا أي عبء فيها، وقد يحتفظ الإنسان بسكونه ويغلب والذي يشهر سيفه بلا خبرة يطعن نفسه بسيفه فيصير أضحوكة بين أصدقائه وأعدائه على السواء. ولكي أوضح قولي هذا أسوق مثال أولئك الذي يؤمنون بتعاليم مارقيون وفالنتينوس Valentinus & Marcion [٥٨] الغريبة فان جميع المرضى بتعاليم أمثال هؤلاء يسقطون الشريعة التي سلمها الله لموسى من بين الكتب المقدسة. أما اليهود فيقدسون هذه الشريعة حتى بعد أن جاء الزمن الذي أبطلت فيه، ومازالوا يتمسكون بحرفيتها مخالفين إرادة الله. أما الكنيسة فهي لكي تتجنب كلا النقيضين سلكت طريقا وسطا، فلا هي خضعت تحت نير الناموس ولا هي نبذته أو نقضته بل توصي به رغم انقضاء عهده لأنه كان نافعًا في وقته. فحري بمن ينوي محاربة العدوين (اليهود والغنوسيين) أن يسلك طريق الوسط، لأنه إذا انتقد اليهود لتمسكهم بالشريعة القديمة فانه يسقط في خطأ لا يغتفر، لأنه بهذا يعطي فرصة للهراطقة ينتهزها الذين يبتغون تمزيق الناموس تمزيقا، وان سعى في حماسة إلى افحام الهراطقة فيمجد الناموس بافراط ويتحدث عنه باعجاب فالفرصة هنا تكون لليهود. كذلك الحال مع الذين يتبعون جنون سابليوس Sabellius و أريوس Arius [٥٩] الذين سقطا بعد إيمان صحيح لعدم اتباعهما طريقا وسطا. وكلاهما ينتسب اسمًا إلى المسيحية ولكن الباحث لتعاليمهما يكتشف أنهما من شيعة ليست أفضل من اليهود وأن اختلفا عنهم في الاسم وحده، ويجد

---

[٥٧] هم أتباع ماني Manes أو Manichaeus الذي ولد عام ٢٤٠م وأعلن أن الله هو علة الخير، والمادة سبب الشر. وقادته هذه النظرية إلى الاعتقاد بأن جسد المسيح طيف لا مادي. وحذف العهد القديم من الكتاب المقدس واستبعد بعض فصول العهد الجديد التي تتعارض مع آرائه.

[٥٨] كلاهما كان مبتدعًا لنوع من الغنوسية Gnosticin، وفي اعتقادهما أن العهد القديم كان أخلاقيًا (أدبيًا) عكس إله العهد الجديد. وبينما كان مبدأ فالنتينوس يمثل الجانب الخيالي والنظري لمذهب الغنوسية كان رأي مرقيون Marcion يمثل الجانب العملي منه وكان دينيًا أكثر منه لاهوتيًا.

[٥٩] إنهم سابليوس Sabellius في مجمع رومية عام ٢٦٣م بانه يقول أن الثالوث شخص واحد، وإن الكلمة والروح هما مجرد فضائل أو انبثاق اللاهوت. أما أريوس فيقول بان ربنا يسوع المسيح كائن قبل تجسده وان بواسطته كما بآلة صنه الله العالم باعتباره أسمى وأقدم المخلوقات.

أن الأريوسيين يؤمنون تقريبًا بهرطقة بولس السموساطي Paul of Samosata وكلاهما قد حاد عن الحق وجانب الصواب. فما أشد الخطر الذي ينشأ عن هذه الحالات، وما أضيق طريق الأرثوذوكسية وأحرجه، فهو محاصر بالصخور على كلا جانبيه، وهناك خوف ليس بقليل إذا حاول الإنسان أن يضرب عدوًا في أحد الجوانب فانه قد يصاب من الجانب الآخر. فلو أثبت إنسان وحدة اللاهوت سارع سابليوس إلى استغلال هذا التفسير لصالح اوهامه [٦٠] متعديًا الناموس. وان ميز بين الأقانيم وقال بأن الآب والابن آخر والروح القدس ثالث، يقف أريوس ليؤول هذا التمييز بين الأقانيم إلى خلافات في الجوهر [٦١] فحري بنا أن نبتعد ونهرب من بدعة الخلط بين الأقانيم من جانب وبدعة تقسيم الجوهر من جانب آخر، بل نعترف بلاهوت واحد لآب وابن وروح قدس كثلاثة أقانيم فنحصن أنفسنا أمام محاربات كافة الهرطقات.

﴿ ٥ ﴾

ولا يمكن إغفال ثرثرة ذوينا وأخصائنا، فهي ليست بأقل من الحملات التي تشن علينا من الخارج فضلا عن أنها تثقل كاهل الراعي بأعباء إضافية. فكثيرون يدفعهم حب الفضول الرخيص إلى أن يشغلوا أنفسهم بأمور ليس من السهل عليهم تفهمها، والتي ان عرفوها لا تجديهم شيئا. وآخرون يطالبون الله بأن يقدم حسابًا عن أحكامه ويقحمون أنفسهم في فحص أعماق تلك الهوة العميقة التي يقول عنها النبي {أحكامك لجة عظيمة} (مزمور ٣٦: ٦) وقليلون هم الذين يعنون بالسؤال عما يتعلق بالايمان، ولا من يهتم بترجمة إيمانه إلى أعمال وسلوك، فالأكثرية يهتمون بالبحث في أمور لا يمكن الكشف عنها، ومجرد فحصها يثير غضب الله – لأننا حين نصر على معرفة مالا يريد الله كشفه لنا فأننا لا نحظى بنتيجة – إذ كيف يمكن أن نحقق هذه المعرفة على غير إرادة الله؟؟ وهؤلاء إذا ما أراد إنسان أن يثنيهم عن بحثهم في مثل هذه الأمور غير المدركة سارعوا إلى اتهامه بالغرور والجهل، لهذا كان حريًا بالراعي أن يكون حكيمًا حتى يبتعد عن الخوض في مثل تلك الأسئلة غير المجدية دون أن يعرض نفسه للوم. وبالاختصار فان مواجهة هذه الصعوبات تحتاج إلى قوة الحجة، فمتى عدم الكاهن هذه المقدرة تعرضت أنفس رعيته (أعني الضعاف منهم والفضوليين) إلى مصير سفن تلاطمها الريح...

﴿ ٦ ﴾

باسيليوس: إذن لماذا لم يشتاق بولس الرسول إلى أن يكون كاملا في صناعة الكلام؟ وهو لم ينكر عدم اتقانه لها بل يعترف صراحة بذلك في رسالته إلى أهل كورنثوس (٢كو ١١: ٦، ١٠:١٠) الذين كانوا يتفاخرون بفصاحتهم.

ذهبي الفم: هذا هو نفس الأمر الذي أهلك كثيرين وجعلهم يتراخون في دراسة إيمانهم، لأنهم لما لم يستطيعوا بلوغ أعماق فكر الرسول وتفهم غاية كلماته ومعناها قضوا عمرهم نائمين متثائبين قانعين بهذا الجهل الذي كان الرسول بولس بريئا منه. فلنؤجل كلامنا في هذا الموضوع إلى الوقت المناسب ونتأمل الآن ما يأتي: إذا سلمنا أن الرسول بولس كان عاميًا في هذا الأمر كما يدعون فماذا ينتفع زماننا من ذلك؟ لأنه كانت لديه قوة العمل التي تفوق بكثير قوة الكلام. أن مجرد تواجد الرسول، ولو بقي صامتا، كان يرعب الشياطين. ولكن رجال اليوم لو اجتمعوا جميعًا في مكان واحد ورفعوا صلوات لا نهاية لها وذرفوا دموعًا غزيرة فلن يقدروا أن يفعلوا من المعجزات ما فعله منديل بولس الرسول. أما صلواته، فأقامت

---

[٦٠] إذا اعترف إنسان بوحدة الثالوث مناقضًا الآريوسيين قد ينزلق في خطأ السابليين Sabellian بشأن الخلط بين الأقانيم.

[٦١] أي إذا ميز الأقانيم على عكس السابليين، كان عليه أن يتيقظ أمام خطأ الأريوسيين الخاص بتقسيم الجوهر أيضًا.

الميت (أعمال ٢٠: ١٠) وصنع معجزات أخرى حتى كان الأمميون يتخذونه إلهًا (أع ١٤: ١١) وقبل انتقاله من العالم استحق أن يختطف إلى السماء الثالثة ويسمع مالم تسمع به أذن (٢كو ١٢: ٢-٤) أما رجال اليوم (ولا أشاء أن أذكرهم بسوء أو أن أهينهم بل أتعجب منهم) فكيف لا تقشعر أبدانهم حين يقارنون أنفسهم بعملاق مثل هذا، لأننا لو تركنا تلك المعجزات جانبًا وتناولنا حياة هذا القديس المبارك وتمعنا في حديثه الملائكي فاننا نجد هذا البطل ظافرًا لامعًا في سيرته أكثر منه في معجزاته. إذ كيف يمكن للمرء أن يصف غيرته وقوة احتماله؟ وبماذا ننعت مخاطراته المترادفة، واهتمامته المتصلة، وانشغاله الدائم بالكنائس، وتعاطفه مع الضعيف، وأحزانه الكثيرة، واضطهاداته غير العادية، وميتاته اليومية؟ وأي بقعة على الأرض، وأي قارة أو بحر لم يشهد أعمال هذا الرجل البار؟ بل حتى الصحراء عرفته لأنها كثيرًا ما أظلته في ساعات الخطر، فقد واجه كل ألوان المحاربات وظفر بكل فن من الفنون، حتى لم تكن هناك نهاية لمحارباته وانتصاراته!! ومع هذا فاني قد انتقصت من قدر هذا الرجل دون قصد مني، لأن مآثره وفضائله تعلو على كل وصف... ولكن أسجل أمرًا آخر يفوق جميع ما أوردته بقدر ما كان يتفوق هو على جميع أترابه: أنه بعد تلك المناقب وهذه الانتصارات العديدة تمنى أن يلقى في جهنم ويسلم إلى عقاب أبدي إن كان في هذا ما يجعل اليهود – الذين كثيرًا ما رجموه وخططوا لاعدامه – يخلصون ويرجعون إلى المسيح (رو ٩: ٣). فمن من الناسس أحب المسيح هكذا؟ فهل يليق بنا إذن أن نقارن أنفسنا بهذا القديس، بعد هذا الفيض من النعم التي وهبت له من فوق، وبعد كل هذه الفضائل التي تحلى بها؟! ومع هذا فانه لم يكن عاميًا كما يعده البعض، فالعامي في تقدير الناس ليس فقط من لا يتقن الفصاحة بل من لا يتصدى للدفاع عن الإيمان الصحيح... اما القديس بولس فلم يزعم أنه كان عاميًا في المجالين وانما في واحد منهما فقط، فيقول أنه كان {عاميًا في الكلام وليس في العلم} (٢كو ١١: ٦)... وحتى إذا فرضنا أن الرسول كان فقيرًا في الكلام وكان انشاؤه بسيطا إلا انه لم يكن أميًا في المعرفة...



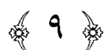
وإلا فكيف أفحم اليهود القاطنين في دمشق (أع ٩: ٢٢) حينما لم يكن بعد قد بدأ يجري المعجزات؟ وكيف صارع اليونانيين وتغلب عليهم؟ (أع ٩: ٢٩)... ولماذا أرسل إلى طرسوس؟ أليس لأنه كان قوي الكلام فأحرج مقاوميه حتى أنهم لما لم يتحملوا مرارة الهزيمة دفعهم السخط إلى السعي في قتله؟! حينذاك لم يكن – كما سبق القول – قد بدأ يجري الآيات، ولا يمكن لأحد أن يقول أن الجماهير أعجبت به لأعماله الباهرة... فهو في ذاك الوقت المنتصرين الذي كانوا في انطاكية وأفلح في درهم؟؟ والأريوباغي الذي كان يسكن أثينا أشد المدن تمسكا بعبادة الأوثان... كيف تبعه هو وزوجته؟ (أع ١٧: ٣٤)... ألم يكن هذا نتيجة الخطاب الذي سمعوه منه؟؟... وكيف كان يعمل في تسالونيكي وكورنثوس وأفسس بل وفي روما ذاتها؟؟ ألم يقض أيامًا وليال بطولها في تفسير الكتب المقدسة لهم؟؟ وماذا نقول عن جداله مع الأبيكوريين والرواقيين (أع ١٧: ١٨)؟ فلو أخذنا في تفصيل جميع محاوراته ومخاطباته لاسهبنا في كلامنا اسهابًا زائدًا. فاذا كان قد وضح أن بولس الرسول كان يستخدم الحوار والجدال قبل قيامه يصنع المعجزات أو بعدها، فكيف يتجاسر إنسان على أن يصف من كانت مواعضه ومحاوراته موضع اعجاب كل سامعيه بأنه كان عاميًا؟؟ ولماذا ضنه (الليكاؤنيين) انه كان هرمس؟؟ (أع ١٤: ١١) صحيح أن الاعتقاد في انه هو وبرنابا كانا آلهة قد نشأ عندما رأوا معجزاتهما، لكن الاعتقاد بأنه كان هرمس لم يصدر عن المعجزة بل عن اقتداره في الكلام...

ولم فاق هذا الرسول باقي الرسل؟؟ ومن أين ذاع خبره على كل لسان من أقصى الأرض إلى أقصاها؟... أليس هذا من قوة رسائله التي انتفع بها ليس المؤمنون المعاصرون له فحسب بل كافة المؤمنين منذ زمانه وحتى الآن بل وإلى مجيء المسيح، لأن رسائله هي بمثابة سور شيد من الصخر وأحاط كنائس العالم... وهو كبطل شجاع يسبي كل عقل لطاعة

المسيح نابذا الخيالات وكل علو يرتفع ضد معرفة الله (٢كو ١٠: ٥) وكل هذا يتم بواسطة الرسائل التي خلفها لنا، والتي هي مملوءة بالحكمة الالهية. وكتاباته نافعة لنا في دحض الآراء الفاسدة وتثبيت الإيمان الصحيح وبلوغ حياة أفضل...



فاسمع ما يقوله في وصيته إلى تلميذه تيموثاوس: {إعكف على القراءة والوعظ والتعليم} (١تي٤: ١٣) ثم يوضح الثمار بقوله: {لأنك إذا فعلت هذا تخلص نفسك والذين يسمعونك أيضًا} (١تي٤: ١٦) ثم يقول ثانية: {وعبد الرب لا يجب أن يخاصم بل يكون مترفقا بالجميع، صالحًا للتعليم، صبورًا على المشقات} (٢تي ٢: ٢٤) ثم يكمل قائلا: {وأما أنت فاثبت على ما تعلمت وأيقنت، عارفا ممن تعلمت. وأنك منذ الطفولية تعرف الكتب المقدسة القادرة أن تحكمك للخلاص بالإيمان الذي في المسيح يسوع} (٢تي: ١٤، ١٥) ثم يقول: {كل الكتاب هو موحى به من الله، ونافع للتعليم والتوبيخ، للتقويم والتأديب الذي في البر، لكي يكون إنسان الله كاملا} (٢تي٣: ١٦، ١٧) وفي توجيهاته إلى تيطس بشأن اختيار الأساقفة يقول: {يجب أن يكون الأسقف بلا لوم كوكيل الله... ملازمًا للكلمة الصادقة التي بحسب التعليم، لكي يكون قادرًا أن يعظ بالتعليم الصحيح ويوبخ المنافقين} (تيطس ١: ٧، ٩)... فكيف يستطيع من هو عامي – كما يدعي أولئك المدعون – أن يفحم مناقضيه ويسد أفواههم؟؟... ورب قائل يقول أن الرسول لم يقصد بهذه الوصايا إلا الكهنة لأنهم بالتأكيد هو محور حديثه... لكن اسمع الرسول يوجه نفس وصاياه إلى العلمانيين أيضًا فيقول في رسالة أخرى لمن هم من غير الكهنة: {لتسكن فيكم كلمة المسيح بغنى، وأنتم بكل حكمة} (كولوسي ٣: ١٦) وأيضًا {ليكن كلامكم كل حين بنعمة مصلحًا بملح، لتعلموا كيف يجب أن تجاوبوا كل واحد} (كولوسي ٤: ٦) ويوجه وصية عامة للجميع حتى يكونوا {مستعدين دائمًا} لمجاوبة كل من يسألهم عن سبب الرجاء الذي فيهم (١بط٣: ١٥). وأما أهل تسالونيكي فهو يوجه نظرهم قائلا: {عزوا بعضكم بعضًا، وأبنوا أحدكم الآخر كما تفعلون أيضًا} (١تي ٥: ١١) وحين يتكلم عن الكهنة يقول: {أما الشيوخ المدبرون حسنا فليحسبوا أهلا لكرامة مضاعفة، ولا سيما الذي يتعبون في الكلمة والتعليم} (١تي ٥: ١٧) فهذا هو كمال التعليم أن يقود المعلمون تلاميذهم بأعمالهم وأقوالهم إلى الحياة المقدسة التي رسمها المسيح لهم. لأن القدوة وحدها لا تكفي لتوجيه الآخرين – ولست أقول هذا من عندي فهي كلمات المخلص نفسه لأنه يقول: {من عمل وعلم فهذا يدعى عظيمًا} فلو أن العمل كان تعليمًا لما كانت هناك ضرورة لإضافة الكلمة الثانية واكتفى بالقول {من عمل} فقط. أما وقد فصل بينهما فثابت أنه يريد أن يؤكد أن الأعمال شيء والتعليم شيء آخر، وأن أحدهما يحتاج إلى الآخر. ولنسمع أيضًا إلى ما يقوله إلى قسوس أفسس: {لذلك أسهروا متذكرين أني ثلاث سنين ليلا ونهارًا لم أفتر عن أن أنذر بدموع كل واحد} (أع ٢٠: ٣١). فما حاجته إلى الدموع مع الأنذار بالكلام مادامت حياته كرسول كانت مثالية؟؟ أن قداسة حياته قد تكفيي لاقناع أناس يحفظون الوصايا، لكنني لا أستطيع القول أن العمل وحده يكفي لاتمام كل شيء.



فاذا قام نزاع وجدال حول الأمور العقائدية وتسلح كل بأسلحته من نفس الكتاب المقدس، فهل تكفي سيرة أي إنسان للبرهنة على شيء؟؟ وما فائدة النسك والتقشف ان سقط الإنسان بعد تدريباته الشاقة في بدعة من البدع، وانشق من جسد الكنيسة بسبب جهل الكاهن بالنقاش والحوار (وهي كارثة عرفت كثيرين عانوا بسببها) فأية جدوى عادت عليه من طول صبره: لا فائدة عادت كما أنه لا جدوى تذكر عندما يكون الإنسان إيمانه صحيحًا ولكن سيرته فاسدة. ومن ثم فانه بسبب هذا

يلزم لمن تقلد تعليم الآخرين أن يتدرب على مثل هذه الجهادات، لأن الرعية عندما ترى قائدها مغلوبًا لا يقدر أن يجاوب مناقضيه، لا ينسبون انهزامه إلى ضعفه بل إلى عدم سلامة عقيدته وهكذا ينزلق كثيرون إلى الهلاك بسبب عدم خبرة الراعي... وربما يشكون فيما كانوا يؤمنون به من قبل... كم هي شقاوة هذا الراعي، وكم هي مخيفة النار التي يضعها على رأسه المسكينة نظير كل نفس يضيعها هكذا... وأما أنت فلا تحتاج إلى أن تتعلم مني هذا لأنك عالم به جيدًا... فان كنت أحرص ألا أكون سببًا في هلاك مثل هذه النفوس وألا أسبب لنفسي عقابًا أشد من المذخر لي هناك في الحياة الأبدية أفيكون هذا كبرياء مني وغرورًا؟

الكتاب الخامس

١. **الكرازة تحتاج إلى درس وجهد كبيرين.**

٢. **من يتصدى لهذا العمل يجب أن يرفض المديح، وأن يكون متمكنا من الخطابة.**

٣. **إذا لم تتوفر لديه هذه القدرات فلن يستطيع خدمة الشعب.**

٤. **فوق كل شيء ينبغي أن يطرح الأحقاد والقيل والقال.**

٥. **المتمكن من الخطابة والوعظ يحتاج إلى الدرس أكثر من غير المتعلم.**

٦. **يجب ألا يستهن بحكم الجمهور، أو يبالغ في التعلق به.**

٧. **يجب ألا يرتجى من كلماته سوى مرضاة الله وحده.**

٨. **الذي لا يرفض المديح يعاني آلامًا كثيرة.**



لقد أوضحنا بما فيه الكفاية كم يحتاج المعلم في نضاله من أجل الحق إلى مهارة وخبرة. ولي مع جلة ما ذكرت أمر ينبغي أن أورده بسبب ما ينشأ عنه من مخاطر لا حصر لها...

هذا الأمر هو الجهد العظيم الذي يبذل في إعداد العظات التي تلقى على مسامع الجماهير. وأول ذلك أن غالبية السامعين لا يهتمون بأن يكون سلوكهم كسلوك التلميذ نحو معلمه، بل يتعدون دورهم معطين أنفسهم حق الحكم الذي يحكم المباريات الرياضية... وكما أن الجمهور في هذه ينقسم إلى شيع يتحمس بعضها لفريق وبعضها للآخر، هكذا ينقسم النا بالنسبة للوعاظ إلى فرض بعضها يؤيدون هذا وآخرون يفضلون الاستماع إلى ذاك. وليس هذا هو المستهجن فحسب بل هناك أمر آخر لا يقل عنه قبحًا، لأنه متى لجأ أحد الوعاظ إلى الاقتباس في عظاته من كلمات غيره فانه يتعرض للتعيير والاحتقار اكثر مما يتعرض له سارق المال. بل وكثيرًا مالا يكون قد استعار من كلام غيره، ولا يعدو الأمر أن يكون مجرد اشتباه ومع هذا فهو يعاني ما يعانيه اللص...

فالواعظ إذن يحتاج إلى سمو في الفكر يفوق حقارتنا لكي يقود الشعب إلى طريق أفضل للاستماع، فيتابعونه ويستجيبون له... ولا سبيل إلى بلوغ ذلك إلا بوسيلتين: الازدراء بالمديح والقدرة على الوعظ الجيد. [٦٢]



لأنه ان افتقر إلى أحد هذين العنصرين أصبح العنصر الآخر غير نافع، لأنه متى ازدرى الواعظ بالمديح ولكن لم يتمكن من أن يعلم بحسب كلام الكتاب {ليكن كلامكم كل حين بنعمة مصلحًا بملح} (كولوسي ٤: ٦) فقد صار محتقرًا من الشعب. وان نجح كواعظ لكن غلبه حب المديح فالضرر يلحقه كما يلحق بشعبه، لأنه بسبب اهتمامه بالمديح يحرص أن يتكلم بهدف الارضاء وليس الإفادة. وكما أن الذي لا يتقن الكلام لا يفوز برضا الشعب، وفي الوقت عينه لا يقدم لهم شيئا يذكر لأنه ليس لديه ما يقوله، هكذا من يسيطر عليه حب المديح فانه رغم قدرته على تقديم خدمات جليلة للشعب، فان عوض ذلك يقدم لهم الغذاء الذي يروقهم مفضلا أن يشتري بذلك ضجة الهتاف.



لذلك فان أفضل الكهنة هو من تمكن من الناحيتين، بحيث لا تطغى أحدهما على الأخرى. لأنه إذا وقف بين المصلين ليعظ بكلمات يقصد بها إثارة الرهبة في قلوب المتهاونين، ثم تعثر وتوقف وأحمر خجلا لقلة بضاعته، ففي الحال تذهب ثمار كلامه هباء... لأن الذي كان يزجرهم... يلجأون إلى معايرته والتهكم من جهله، ظانين أنهم يسترون بذلك عيوبهم. من ثم ينبغي له أن يدرك قدر هذين العنصرين كي يتناولهما بحسب الحاجة... لأنه متى كان بغير لوم في أعين الجميع، فانه يستطيع بماله من سلطان أن يعاقب أو يصفح عمن هم ضمن رعيته... والكمال الروحي لا يتمثل في ازدراء المديح فحسب بل ينبغي أن يزدري بأشياء أخرى...

[٦٢] كانت عظات ذهبي الفم كثيرًا ما تقاطع بالتصفيق، الأمر الذي كان هو يوبخه بعنف.



والأشياء الأخرى التي يلزم أن يزدري بها هي:

الوشاية والحقد والحسد، لأنه لا يكفي عدم خوف الراعي أو صبره عما يقال عنه من كلام شرير بغير حق... بل ينبغي ألا يهمل ذلك رغم زيف الكلام... وجميل به أن يحاول اخماد المثالب فورًا. لأنه ليس شيء يزيد في انتشار خبر شرير أو صالح مثل الخارجين عن النظام، لأنهم بحكم تعودهم السماع ونقل الكلام بغير ترو أو تحقيق يرددون عشوائيًا كل ما يصادفهم، بغض النظر عن مدى صدقه. لهذا لا يسوغ تجاهل الشعب، بل يجب المبادرة إلى حسم ظنونهم وهي بعد في مهدها ومحاولة اقناع المشتكين عليه مهما كانت صفاتهم، دون ان يتركهم لظنونهم الردية، أما ان فعل الكاهن كل هذا دون جدوى فحينئذ يجب ان يتركهم ولا يعبأ بهم... لأنه متى تأثر الإنسان بهذه العوارض فلن يقدر في وقت من الأوقات أن يقدم عملا طيبًا أو يأتي بأمر عظيم، لأن اليأس والاهتمام الدائم كفيلين بتدمير القدرات العقلية واضعافها غاية الضعف. هكذا حري بالكاهن أن يتصرف نحو رعيته كما الوالد نحو أصغر أطفاله. وكما أن الوالد لا يأبه لاهانات أطفاله أو ضربهم أو بكائهم، هكذا يجب أن يكون حال الراعي مع رعيته فلا يعبأ بمديحهم ولا يكتئب أن لاموه بغير سبب. على أن هذا الأمر صعب يا صديقي العزيز، بل أظن أيضًا أنه من المستحيل ألا يبتهج إنسان بسماع المديح حين يواتيه النجاح. ومن يسره المديح فانه يتوق إلى سماعه، وما دام يشتهيه فانه يتكدر بالضرورة إذا افتقده. لأنه كما أن المغرمين بجمع المال يحزنون ان فقدوه... والذيم تعودوا حياة الترف لا يحتملون حياة التقشف... هكذا عشاق المديح والتصفيق فانهم يكتئبون ليس فقط حيت يتهمون باطلا بل متى تناقصت قصائد المديح والتقريظ، ويصبحون كمن أصابتهم مجاعة يشعرون معها بالضياع، ولا سيما ان كانوا قد تعودوا على سماع المديح... فكم من المضايقات تحل بالذي يدخل إلى ميدان الوعظ ولديه مثل هذه الرغبات؟! لأنه كما أن البحر لا يمكن أن يكون بلا أمواج هكذا نفس محب المديح لا يمكن أن تخلو من الهموم والأحزان.



لأنه متى كان الواعظ ذا مقدرة عالية،... فانه سيخسر هذه المقدرة إذا لم يعمل على نموها بالممارسة والتدريب المتصل، حتى أنه يقال أن التعب الذي يبذله المثقف أعظم من التعب الذي يبذله غير المتعلم... لأن خسران المثقفين أعظم بمقدار الفرق بين ثقافة كل منهما. لأن غير المتعلمين لا يلامون إذا لم يقدموا شيئا يستحق التقدير، أما المتعلمون فانهم إذا لم يقدموا دوامًا مادة تفوق الظن بهم فما أكثر اللوم الذي يلحقهم من كل جانب. وغير المتعلمين يمدحون لأقل عمل يقدمونه اما جهود الحكماء فاذا لم تكن ممتازة فهي تقابل بكثير من متصيدي الأخطاء. لأن المستمعين يقيمون من أنفسهم حكامًا ليس فيما يقال فقط بل في مستوى القائلين ومقدارهم، فمن ثم متى برع إنسان وفاق جميع أقرانه في الخطابة فانه دون الباقين يحتاج إلى دراسة كادحة واجتهاد متواصل... فإذا لم تتناسب عظاته مع عظم شهرته، فلن يفوز إلا بالتهكم والانتقاد دون أن يلتمس له عذر... مع أنه لا يعدو أن يكون بشرًا لا يمكن ان يبقى على حال واحدة على الدوام، او يواتيه النجاح في كل الأحوال، بل من الطبيعي أن يهفو أحيانا ويبدو في أقل من مستوى قدراته أحيانا أخرى، لكنهم لا يقدرون شيئا من هذه الاعتبارات ويحاسبونه على أخطائه كأنهم يحاكمون ملاكا لا بشرًا. فمن شأن الإنسان أن يتجاوز عن فضائل ابن جنسه مهما كثرت او عظمت، وان بدأ منه عيب، ولو كان عرضيًا أو حتى في أوقات متباعدة، فحالا ما يلاحظه ويذكره دائمًا... وهكذا كثيرًا ما تقلل هذه الأمور التافهة والصغيرة من عظمة أعمال كبيرة.



هكذا ترى أيها الصديق العزيز أن القدير في الوعظ يحتاج إلى الدرس أكثر من غيره. ومع اجتهاده يحتاج أيضًا إلى سعة صدر وقوة احتمال أكثر من أي إنسان آخر، لأن هناك دائمًا من يهاجمونه يدفعهم في هذا غرور وعدم إحساس... ويتحتم عليه هو أن يحتمل حقدهم بنبل، لأنهم إذ لا يستطيعون إخفاء كراهيتهم المرة التي يضمرونها له بغير اعتدال يشتمونه ويوبخونه ويفترون عليه في الخفاء ويشهرون به علانية... والنفس التي تتألم وتثور من كل ما ذكرنا، لا تلبث أن تفسد من الألم والحزن... وعلى الواعظ أن يهئ نفسه لمواجهة مثل هذه الضيقات بسعة صدر، وأن يغفر لمرتكبيها، ويبكي من أجل فاعليها باعتبارهم مساكين يستحقون الشفقة. لأنه متى قام فنان بارع ومشهود له برسم لوحة والإبداع فيها، ثم جاء جاهل واستهزأ بها فان الفنان لا يكتئب ولا ينفعل... ولو جاء من لا يفهم في الفن ولا يتذوقه واستحسن لوحة حقيرة فلا يجوز للفنان أن ينساق وراء حكم الجاهلز

﴿ ٧ ﴾

لأن الفنان الفاضل يكون ناقدًا لانتاجه، وهو الذي يقرر أن كان جيدًا أو رديئا دون اعتبار لما يصدره غير الفنيين من أحكام وآراء خاطئة وغير فنية. فحري إذن بمن يؤتمن على التعليم ألا يعبأ بمدح الناس أو يتخاذل بسبب كلامهم، بل يعني بان تكون عظاته وأقواله من أجل مسرة الله (وليكن هذا وحده رائده وهدفه وليس استجداء المدح والاعجاب) فان مدحه الناس لا يتأثر، وإذا لم يمدحوه فلا يسعى هو إلى ذلك ولا يكتئب، إذ يكفيه عزاء أن يشعر أن يدبر ويقوم بالتعليم من أجل مسرة الله.

﴿ ٨ ﴾

فلو جرفته شهوة المديح فلن يجني من أعماله ثمارًا ولا ينفع من قدرته على الوعظ. لأن النفس غير القادرة على احتمال الانتقادات الباطلة، تغلبها الكآبة وتطرح كل اهتمام بالوعظ. من أجل هذا فانه من الضروري أن يلزم نفسه بتدريب على الازدراء بكل أنواع المديح. لأنه لا يكفي أن تعرف الوعظ لكي تحافظ على القدرة عليه أن لم تطرح حب المديح. فان أراد إنسان أن يتعمق في البحث فسيجد أن حاجة الواعظ غير الموفق إلى فضيلة اللامبالاة بالمديح ليست بأقل من حاجة الواعظ البارع إليها. وان الضرورة تدفعه إلى ارتكاب كثير من الأخطاء بسبب خضوعه لرأي العامة، لأنه إذا عجز عن الارتفاع إلى مصاف الوعاظ المشهورين فانه لا يكف عن اغتيابهم وادانتهم بغير بب، ويرتكب أعمالا مشينة كثيرة، بل يجسر على أي شيء ولو أدى إلى تدمير ذات نفسه من أجل أن يهوي بهم إلى مستوى تفاهته. وفضلا عن هذا فانه يكف عن جده واجتهاده في العمل، ويترك عقله يذهب في سبات عميق طالما أنه لم يفز من وراء كده الكثيربما يشبع نهمه في المديح. لأن الفلاح متى كان عمله في أرض بور أو صخرية، فانه قد يكف عن مواصلة حرثها مالم يسيطر عليه اهتمام خاص بالأمر أو يخشى من مجاعة تتهدده. لأنه ان كان القادرون على الوعظ بمقدرة كبيرة يحتاجون إلى مران دائم لحفظ هذه الموهبة فمن لا يملك شيئا في هذا المجال كم يلاقي من صعوبات ومتاعب؟ وكم يعاني من قلق حتى يمكنه جمع قليل من الأفكار؟ وان كان أحد أفراد الأكليروس الذين تحت سلطانه، والذي يعتبر في مركز أقل يتميز عليه في القدرة على الوعظ، فكم يحتاج الكاهن إلى حكمة يتحلى بها من أجل ألا يتملكه الحسد أو ينتابه اليأس؟ لأنه كي يكون الإنسان في مركز سام ثم يتفوق عليه

من هو دونه في المرتبة ويحتمل هذا في نبل، فان هذا ليس في طاقة النفس العادية أو في طاقتي بل هو من عمل النفس الماسية. فان كان هذا الكاهن صبورًا ومتواضعًا، كانت معاناته لمثل هذا المواقف محتملة... أما أن كان جسورًا متفاخرًا ومتكبرًا، فانه سيشتهي الموت يوميًا طالما أن هناك من يمرر حياته ويهينه مواجهة وبسخر منه في غيابه ويغتصب الكثر من سلطانه وهيبته. أما من يستمتع بطلاقة في الوعظ فهو يشعر بسلام عظيم في كل هذه الظروف نتيجة اصغاء الجماهير إليه والتفافهم حوله. أما عرفت مقدار الشغف بالوعظ الذي سيطر على نفوس المسيحيين في هذه الأيام؟ وان خدام الكلمة يحظون بالتكريم ليس بين الكفار فقط بل بين أهل الإيمان؟ فكيف يستطيع إنسان أن يحتمل عارًا هذا مقداره إذ يعلم أنه عندما يعظ يصمت الجميع على مضض متلهفين إلى نهاية عظته كما يتطلعون إلى الراحة بعد التعب، بينما يصغون إلى آخر بشغف مهما طالت عظته، ويأسفون إذا اقترب من ختام عظته بل يغضبون عند نهاية حديثه؟!! فاذا كانت هذه الأمور تبدو في نظرك هينة يمكن الاستهانة بها فانما يرجع هذا إلى عدم خبرتك... أما هي فكافية لأن تخمد الحماس وتصيب قدراتن العقل بلشلل مالم يخل الإنسان نفسه من كافة العواطف الإنسانية ويدرس كيف يشكل سلوكه بحسب الأسلوب الروحي الذي لا يتأثر بالحسد أو بحب المجد والشهرة أو بأي شعور آخر مريض. فان وجد مثل هذا الرجل الذي يستطيع أن يقمع هذا الوحش الذي لا يمكن اقتناصه أو استئناسه، فانه ينبغي عليه أن يقطع رؤوسه العديدة أو على الأقل لا يدعها تنمو... أما الذي لم يخلص نفسه من هذا الوحش فانه يجلب على نفسه محاربات مختلفة وهياج دائم ويأس كئيب.

الكتاب السادس

١. الكهنة مسئولون عن عدم تقديم حساب عن خطايا غيرهم.

٢. الكهنة أشد احتياجًا من الرهبان إلى الحذر والاحتراس.

٣. الراهب يتمتع بهدوء الفكر أكثر من راعي الكنيسة.

٤. الكاهن يؤتمن على جميع المسكونة فضلا عن واجباته الأخرى الجسيمة.

٥. ينبغي أن يتكيف الكاهن مع كل الظروف.

٦. حياة النسك بالنسبة للكاهن ليست علامة على قوة الاحتمال وحسب تدبير الشعب.

٧. لا يستوي نسك من يعيش منفردًا مع من يعيش في العالم.

٨. الذين يعيشون حياة الوحدة ينمون في الفضائل بأسهل من الذين يهتمون بالكثيرين.

٩. لا ينبغي أن يستهين المرء بظنون العامة حتى ولو كانت على غير أساس.

١٠. عقاب آثام الكاهن أعظم من عقاب آثام العلمانيين.

١١. أمثلة ونماذج الآلام والمخاوف التي يتوقعها الكاهن.

١٢. محاربات الشيطان أشد قسوة من المحاربات الأخرى.



هذا هو حالنا هنا كما سمعت. لكن ماذا يكون حالنا فيما بعد وكيف سنحتمل حين نضطر أن نقدم حسابًا عن كل ما اؤتمنا عليه؟

لن يقتصر عقابنا على ما نلقاه من خزي وعار بل ان عذابًا أبديًا ينتظرنا بحسب قول الرسول {أطيعوا مرشديكم واخضعوا لأنهم يسهرون لأجل نفوسكم كأنهم سوف يعطون حسابًا} (عب ١٣: ١٧). وان كنت قد أوردت هذا القول فيما ذكرته من قبل، الا أني لن أغفل عنه الآن لأن هذا الوعيد يؤرق نفسي باستمرار. فان كان الذي يعثر واحدًا فقط يكون من الخير له أن {يعلق في عنقه حجر الرحى ويغرق في لجة البحر} (مت ١٨: ٦) وان كان الذين يعثرون الأخوة ويتعبون ضمائرهم الضعيفة يخطئون إلى المسيح (١كو ٨: ١٢)، فالذين يهلكون لا واحدًا ولا اثنين أو ثلاثة بل نفوسًا عديدة فماذا يصيبهم؟ وأي جواب يقدمونه عن ذلك؟ لن ينفع هناك اعتذارهم بعدم الخبرة أو الجهل، أو الاحتجاج بأنهم أكرهوا على قبول الكهنوت. قد يكون الأمر ميسورًا لأحد أفراد الرعية أن يتعلل بمثل هذه الحجج عن خطاياه، أما الكاهن فلا يستطيع أن يحتج بها عن خطايا رعيته. لأن الكاهن الذي أقيم لتصحيح أخطاء الآخرين وتحذيرهم من محاربات أبليس المنتظرة، لن يستطيع أن يحتج بجهله كما لا يستطيع أن يقول: ما سمعت دق الطبول أو شعرت بالحرب... لأنه – كما يقول حزقيال النبي – لهذا الأمر جلس، وله وحده أقيم، وهو أن يبرق للآخرين ليحذرهم من الأخطاء الداهمة، لذلك لا فرار من القصاص حتى ولو كان الهالك واحدًا فقط. لأنه إذا رأى الحارس المعركة وشيكة ولم يبوق للشعب منذرًا، ثم اشتعلت الحرب وهلكت نفسًا واحدة، فالنفس التي هلكت تكون قد اخذت بذنبها أما {دمه فمن يد الرقيب أطلبه} (حز ٣٣: ٦).



كف إذن عن توريطي في عقوبة لا مفر منها... لأنه حديثته لا يتصل بقيادة جيوش أو ممالك أرضية، ولكن بوظيفة تتطلب فضائل الملائكة. فنفس الكاهن ينبغي أن تكون أنقى من شعاع الشمس، حتى لا يهجره الروح القدس، وحتى يستطيع أن يقول مع بولس {فأحيا لا أنا بل المسيح يحيا فيّ} (غلا ٢: ٢٠).

فان كان الذين يسكنون البراري ويعتزلون المدينة وأسواقها وضجيجها ويسعدون بالهدوء والسلام، لا يطمئنون إلى إمكانية دوام هذا الحال، فيلزمون ذواتهم بعدد لا يحصى من التدريبات، ويسيجون حول أنفسهم من كل جانب، ويتعلمون كيف يتكلمون وكيف يسلكون في حرص، لكي يتمنوا بأقصى طاقة بشرية أن يتقربوا إلى الله بدالة وطهارة – فكم تظن الكاهن يحتاج من الجهاد حتى يحرر نفسه من كل دنس، ويحفظ جماله الروحي بغير شائبة؟؟... لا شك أنه يحتاج إلى نقاوة أكثر مما يحتاج إليه سكان البراري، فهو معرض أكثر منهم إلى مغريات يمكن أن تدنسه، مالم يتسلح ضدها، ويواظب في تيقظ وجهاد شديدين على قمع ذاته...

فالأمور التي تستخدمها النساء في الأغراء، كافية أن تشوش العقل، مالم تتصدى لها النفس بتحكم شديد. وان البلبلة التي تثيرها هذه الأمور ليست مستغربة ، لكن الشيء الذي يدعو إلى العجب والحيرة هو مهارة إبليس في الإيقاع بالناس الذين نجوا من فخاخ هذه المغريات ليهلكهم بما يناقضها!!...



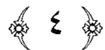
لقد حدث فعلا أن بعض الرجال الذي أفلحوا في النجاة من هذه الفخاخ سقطوا في أمور أخرى تختلف عنها كثيرًا، لأن مظهر السلوك البسيط (لدى المرأة) ومظاهر الفقر والحرمان، قد تستميل الناظر في البداية إلى أن يرثى لها ثم تقوده إلى هلاك كلي. وكثيرون ممن كانوا قد هربوا من الفخاخ الأولى المنصوبة في طريق الإغراء، يسقطون بسهولة في الأمورالأخرى التي تختلف اختلافا بينا عنها ثم يهلكون.

فاذا كان بواسطة الغنى أو الفقر، الجمال أو القبح، التزين أو اهمال المظهر، بفنون الإغراء التي تسخدمها المرأة أو بالأشياء التي تختلف عنها... قد سقط قوم بسهولة وهلكوا نتيجة ما تنشئه في نفس ناظرها من حرب، فكيف يمكن أن يتنفس الكاهن وقد أحاطت به كل هذه الفخاخ؟؟. وأي ملجأ يمكنه أن يلوذ به لكي يحفظ نفسه بغير قلق من الأفكار الدنسة؟؟

والأن أتعرض للمجد الباطل الذي هو سبب لعدد لا يحصى من الشرور. فالخطايا التي تأتي عن طريق النساء تدنس الطهارة، وقد تهلك الرجل إذا لم يسهر على مراقبة نفسه من مثل هذه المحاربات... أما الكرامة التي يبديها الرجال فما لم يتقبلها الكاهن بسمو الفكر فانها قد تقوده إلى نوعين من الأمراض: طلب المزيد من المديح، والكبرياء اللاشعوري. وأما الذين يؤيدونه ويكرمونه فهو يضطر لأن يخضع لهم ولأجل هذه الكرامات فانه يشمخ على من هم دونه، وينحدر إلى هوة الكبرياء.

هكذا من يعيش وسط العالم، يحتاج بالضرورة إلى أن يواجه ليس هذه الفخاخ فحسب، بل أعظم منها وأكثرًا خداعًا... أما الذي يسكن البراري فهو يتحرر منها. ولكن إذا عرض في فكره في بعض الأوقات هاجس قبيح، فهذا الخيال يكون ضعيفا خافتا ويخمد سريعًا إذ لا يجد من الخارج الوقود الذي يلهبه.

فالراهب المنفرد ليس لديه سوى نفسه يخشى عليها. وحتى إن اضطر إلى الاهتمام بآخرين، فانه من السهل حصر عددهم، الذي مهما بلغ فهو أقل عددًا ممن يلتزم الكاهن برعياتهم في الكنيسة، والاهتمام بهم أخف من أولئك ليس لقلة عددهم فحسب، بل لكونهم قد تحرروا من اهتمامات العالم، وليس ما يشغلهم من شئون الزوجات او الأولاد او خلافه، وهكذا يكونون أكثر طاعة لرؤسائهم، وإذا كانت عيشتهم مشتركة فانه بنظرة واحدة يمكن التعرف على هفواتهم فيسهل اصلاحها، ذلك لأن الإشراف الدائم للمعلم هو عون كبير للتقدم في الفضيلة.



لكن الغالبية العظمى من أفراد الشعب الذي يرعاه الكاهن تشغلهم اهتمامات الحياة، مما يجعل اتمامهم لواجباتهم الروحية أبطأ. ومن ثم كان من الضروري أن يقوم المعلم يوميًا ببذر بذار الكلمة، لكي بمداومة السماع يثبت التعليم عندهم . لأن الثراء الفاحش، والسلطان الزائد، والتراخي الناشئ عن الترف، وما شاكل هذه الأمور، إذا اتفقت واجتمعت خنقت البذور. وكثيرًا ما تقوم الأشواك الكثيفة بمنع البذور من أن تصل حتى إلى سطح الأرض. والضيقات الكثيرة والفقر الشديد والاضطهاد الدائم وغيرها من الأمورالمتشابهة والتي تناقض الأمور الأولى السابق ذكرها، تصرف العقل عن الانشغال بالروحيات.

أما عن خطايا الكاهن وآثامه فلا يظهر له منها إلا القليل، أما الباقي الكثير منها فلا يخطر على باله منه شيء.

ورغم أن علاقات الكاهن بشعبه تكتنفها صعوبات كثيرة، فانه إذا فحص علاقته بالله فانه سيكتشف أنها أضعف، لأن الكهنوت يحتاج إلى اجتهاد أعظم وأشمل. لن من دعته الضرورة أن يكون سفيرًا عن مدينة بأسرها – ولا أقول عن مدينة

فحسب، بل العالم أجمع – يضرع إلى الله كي يصفح عن خطايا الجميع، ليس فقط الأحياء منهم بل الراقدين أيضًا – فأي الأنواع من الرجال ينبغي أن يكون؟؟ أما أنا فلا أتصور أن دالة موسى وإيليا تكفيان لمثل هذه الضراعة.

فالكاهن، لأنه أؤتمن على العالم كله وصار أبًا لجميع الناس، يتقدم إلى الله متوسلا في الصلوات الخاصة والعامة من أجل رفع الحروب في كل مكان، وإخماد الاضطرابات، ملتمسًا السلام والهدوء لكل نفس، والشفاء للمرضى... لهذا لزم أن يتفوق في كل فضيلة على من يصلي من أجلهم، بمقدار ما يتفوق الحكام على رعاياهم. والذي نراه يستدعي الروح القدس، ويقدم القرابين المقدسة، ويتقرب على الدوام إلى الله... فبأي نوع من الفضائل يلتحف؟ وكم من الطهارة والنقاوة تطلب منه؟ ثم تأمل مقدار الطهارة التي يجب أن تتصف بها اليدان اللتان تخدمان هذه الأمور، ومقدار البر الذي ينبغي أن يتصف به اللسان الذي ينطق بكلام الشريعة... كم يتطلب هذا من الكاهن طهارة وقداسة، حتى يكون أهلا لأن تطوف حوله الملائكة والأجناد السمائية التي تملأ كل أرجاء الكنيسة تكريمًا للذبيحة الموضوعة على المذبح. وهذا يمكن أن ندركه من نفس الطقوس التي تمارس في القداس الالهي. وفضلا عن هذا فقد سمعت بنفسي عن قسيس شيخ وقور تعود أن يرى رؤى، وقد روى أن استحق أن يرى منظرًا يشبه ما وصفناه الآن... وقال أن رأى في احداها – وبمقدار ما أمكنه أن يمد بصره – سحابة من الملائكة في ملابس براقة يحيطون بالمذبح وينحنون كما يليق بجنود في حضرة مليكهم. كما روى آخر – ليس كناقل قصة بل كمستحق أن يكون شاهد عيان – ان الناس الذين على وشك الانتقال، متى تناولوا من الأسرار المقدسة بضمائر نقية، عند آخر نسمتهم تزفهم الملائكة وتحملهم تكريمًا لذاك الذي تناولوه.

أفلا تشعر أنت إذن أن قربت نفسًا غير مستحقة إلى هذا السر الجليل، أو رفعت إلى الكهنوت شخصًا في رداء مدنس طرحه يسوع خارجًا من بين المتكئين؟! (مت ٢٢: ١٣).

إن نفس الكاهن ينبغي أن تتلألأ كشعاع الشمس لتنير المسكونة كلها. أما نفسي فتخيم عليها سحابة مظلمة بسبب ضميري الشرير، مما يجعلني أنسحق دوامًا غير قادر أن أرفع بصري إلى الله. وإذا كان الكهنة هم ملح الأرض (مت ٧: ١٣) فمن ذا الذي يحتمل قلة فهمي وانعدام خبرتي في كل الأمور، اللهم إلا أنت الذي شملتني بمحبة فائقة. فان الكاهن لا يكفيه الاتصاف بالطهارة ليكون أهلا لهذه الخدمة، بل يحتاج أيضًا إلى أن يكون حكيمًا ومحنكا في أمور شتى، وأن يكون خبيرًا بشئون العالم، ليس بأقل من القوم المتصرفين فيه. وفي الوقت نفسه يكون متحررًا من العالم أكثر من الرهبان سكان البراري. لأنه طالما تدعوه الضرورة إلى مخالطة المتزوجين وذوي الأبناء والخدم والثروة، ومن يشغلون المناصب العامة ومن لهم نفوذ... هكذا ينبغي ان يكون هو أيضًا متعدد الجوانب. وأقول متعدد الجوانب ولا أقول ذا كلف أو ملق أو رياء، بل على درجة كبيرة من الحرية والثقة بالنفس والتضحية بالمصالح الشخصية، حازمًا يجمع بين الرفق والشدة، لأنه يعسر أن يعامل أفراد رعيته بأسلوب واحد، كما أن الطبيب لا يستعمل خطة واحدة لعلاج كل مرضاه، ولا ينهج الربان منهجًا واحدًا في مواجهة الأغواء، لأن عواصف كثيرة مختلفة تحيط بالسفينة التي يدبرها الكاهن، وهي لاتصادمها من الخارج فحسب بل تأتي من الداخل أيضًا، فمن ثم تدعو الحاجة إلى اتضاع كثير وحذر، وكل هذه الأمور المتباينة يقصد بها هدف واحد هو مجد الله وبناء الكنيسة.



عظيم هو جهاد الرهبان، وكثير هو تعبهم. ولكن ان قارن إنسان جهادهم بما ينطوي عليه الكهنوت الحقيقي من مشاق، فانه سيجد الفارق بينهما واسعًا بقدر ما هو بين الملك وأحد أفراد الرعية. لأنه وان كان جهاد الراهب كبيرًا بالحقيقة ولكن هذا الجهاد يشترك فيه الجسد والروح معًا، والجانب الأكبر منه يتم بقدر ما تسمح حالة الجسد، فان وهن وضعف بقيت الرغبة

كامنة دون أن تخرج إلى حيز التنفيذ. لأن النسك الزائد في الأصوام الكثيرة وافتراش الأرض والسهر والامتناع عن الاستحمام وغير ذلك من التدريبات الخاصة بتذليل الجسد، تمضي جميعها بلا فائدة إذا كان الجسم الذي يراد ترويضه ضعيفا. اما بالنسبة للكهنوت فنقاوة الروح تأتي في المرتبة الأولى. والأمر لا يحتاج إلى صحة بدنية يمارس بها الكاهن فضيلته ويظهر قدرته على إذلال جسده. لأنه ماذا تفيدنا قوة الجسم إذا أردنا ألا نكون متكبرين عنيدين، أو أردنا أن نكون متيقظين وعفيفين ومتسربلين بباقي الفضائل التي رسمها الرسول للكاهن الكامل؟!

﴿ ٦ ﴾

فكما أن السحرة والحواة يحتاجون إلى عدد كبير من البكر والحبال والخناجر لكي يمارسوا ألعابهم، وكما يختزن الفيلسوف كل وسائل فنه داخل عقله بغير حاجة إلى أجهزة خارجية هكذا الحال فيما نحن بصدده الآن. فالراهب يحتاج إلى صحة بدنية، ومكان يناسب منهج حياته بحيث يوفر له الهدوء المطلوب...

أما الكاهن فلا يحتاج إلى شيء من هذه لسد أعوازه... طالما أن يحفظ ملكاته ومواهبه في خزائن عقله. فان أعجب إنسان بقدرة الكاهن على الإنفراد والوحدة بعيدًا عن مخالطة عامة الناس، فأنا أرى أن مثل هذا السلوك هو دليل الصبر والثبات، ألا أنه ليس علامة كافية على كمال النفس. لأن الذي يجلس على المركب في الميناء لا يعطي الدليل على براعته وفنه، مالم يتمكن من أن يقود سفينته بسلام وسط البحر، وحينئذ لا يقدر أحد أن ينكر مقدار تفوقه.

﴿ ٧ ﴾

ولن يكون هذا أمرًا غريبًا أن نرى الراهب الذي يعيش بمفرده لا يضطرب ولا يسقط في خطايا كثيرة او كبيرة، لأنه لا يواجه الأمور التي تزعج عقله وتثيره. أما الذي يخالط الجماهير ويضطر إلى حمل خطايا الكثيرين، مع هذا يبقى ثابتا رصينا يدبر السفينة وسط العواصف في هدوء وحكمة، فهذا هو الرجل الذي يستحق التطويب بعدل لأنه قدم الدليل الكافي على شجاعته ومقدرته.

فلا تتعجب إذن أن كنت بسبب تجنبي مخالطة الناس لا أجد كثيرين يتهمونني. ولا تندهش ان كنت لم أخطئ في حال نومي ولم أسقط إذ لم يصارعني أحد ولم يلحقني أذى إن كنت لم أدخل في عراك مع أحد. فمن ذا الذي يستطيع أن يشهر بي أو يظهر عيوبي؟ أهذا السقف أم هذا البيت؟! بل فانه ليس لهما لسان... فهل تستطيع إذن والدتي التي تعرف شئوني أكثر من الجميع أن تجعلني أخطى؟ حسنا فليس لي معها تعامل ولم نتخاصم يومًا، وحتى ان حدث هذا فلا توجد ام يصل بها الحال إلى ان تفقد حنانها وأمومتها، ويعوزها العطف على ابنها حتى تسب وتكيل التهم أمام الجميع لولدها الذي حملته وربته من غير أن تكون هناك ضرورة ملحة أو شخص يحثها على التصرف هكذا. ومع هذا فلو أراد إنسان أن يكتشف نفسي لوجدت هناك أشياء كثيرة فاسدة. ولعلك أنت بنوع خاص تدرك ذلك، فقد اعتدت ان تغمرني بمديحك عند الجميع. ولكني لست أقول هذه الأمور لمجرد التواضع. فاني أذكر كم من مرة قلت لك ونحن نناقش هذا الموضوع: إذا خيرت بين النجاح في رعاية الكنيسة او في حياة الرهبنة فاني سأفضل ألف مرة الأمر الأول. لأني لم أفتر عن تطويب أولئك الذين يستطيعون تدبير هذه الخدمة حسنا ولن يخالفني أحد في أنه لو كنت صالحًا لحمل هذا النير الذي أحسبه بركة لما فررت. ولكن ما حيلتي؟ فما من شيء يضر بخدمة الكنيسة قدر ما عندي من تكاسل وإهمال قد يظنه البعض أنه نسك ولكنه قناع أخفي وراءه فشلي، أوحجب به كثرة خطاياي حتى لا تنكشف. لأن من اعتاد أن يركن إلى الراحة ويمضي وقته في كسل واسترخاء فحتى لو كان نبيل

الطبع فانه سيرتبك لقلة حيلته... أما إذا كان بطيء الفهم وغير خبير بهذه الجهادات – وهو ما ينطبق على حالتي – فمتى أوكلت إليه هذه الخدمة فلا فرق بينه وبين تمثال حجري. لذلك فقليلون من الداخلين إلى هذا الاختبار العظيم هم الذي يتألقون، والغالبية ينكشفون ويفشلون ويتعثرون أمام صعوبات وآلام كثيرة... ولا غرابة، فهناك فارق بين المناضل الذي صقلته التجارب والبلايا وبين المتهاون غير المدرب.

لأجل هذا ينبغي للقادم على هذه المعركة أن يحتقر المجد الباطل ويتسامى عن الغضب وأن يتصف بالحكمة والحصافة. أما الذين ألفوا حياة الوحدة فليست بهم حاجة إلى ممارسة هذه الفضائل، لأنه ليس هناك من يثيرون غضبهم حتى يمارسوا كبح جماح غيظهم. وليس لهم معجبون أو تابعون حتى يتدربوا على احتقار المديح. وليست لهم حاجة إلى الحكمة والفطنة التي تتطلبها رعاية أمور الكنيسة. من أجل هذا فانهم إذا أقدموا على جهادات ليس لهم خبرة بها، يحارون ويفقدون رشدهم ويتملكهم اليأس. وعوض أن ينموا في الفضيلة نراهم يفقدون ما قد يكون لديهم منها.

﴿ ٨ ﴾

باسيليوس: وماذا بعد؟ أنولي شئون الكنيسة من شغلوا بأمور العالم، وبرعوا في المشاحنات والثلب والقدح، وامتلأوا غشا، وتمرسوا في فنون اشباع الشهوات؟!!

ذهبي الفم: صبرًا يا عزيزي، فلا يمكن أن يدور بخلدك عند اختيار الكهنة ان ننتخب من هم هكذا، بل ينبغي أن يتم الاختيار من بين الذين استطاعوا بعد الاختلاط بالعالم ان يحفظوا طهارتهم بلا دنس ويحتقروا أمور العالم وشهواته ويعيشوا في نسك وهدوء ويقظة متحلين بباقي فضائل الرهبان ان لم يزيدوا عنهم فيها.

أما الذي استطاع بعزلته وعدم اختلاطه بالناس أن يحجب عيوبه، فانه ان خرج إلى المجتمع فسرعان ما ينكشف أمره ويصبح أضحوكة ويقابل المخاطر التي كدت أنا أن أجابهها لولا عناية الله التي أزاحت جمر النار عن رأسي. لأن من كان بهذه الصفة لا يخفى أمره على أحد إذا عين في مكان بارز، لأن كل أموره ستنكشف. وكما أن المعادن تمتحن بالنار هكذا الكهنوت يميز نفوس الناس ويفرزها. فأي إنسان ان كان غضوبًا أو صغير النفس أو ساعيًا وراء المجد أو كان متعجرفا أو مهما كان فيه من أمثال هذه الخصال، فان أمره ينفضح وسريعًا ما تنكشف عيوبه. ولا تنكشف فقط بل تبدو أكثر شناعة وقبحًا. فكما أن جروح الجسد يصعب شفاؤها إذا خدشت قشرتها، هكذا صحة النفس إذا تهيجت وأثيرت فانها تزداد حدة وتدفع أصحابها إلى السقوط في خطايا أكبر... لأنه هذه الأسقام تجر من لايقمعها إلى طلب المجد والكبرياء والسعي وراء مقتنيات العالم، ثم تجعله ينحدر إلى الترفه والراحة والكسل، وشيئا فشيئا إلى شرور أقبح. فما أكثر الظروف القادرة في المجتمع على تضليل الفكر وإعاقة الطريق المستقيم المؤدي إلى الله. وأعظم هذه الشرور مخالطة النساء وليس من الممكن للأسقف الذي أقيم على الرعية كلها أن يعني بالرجال ويهمل النساء اللاتي هن أكثر حاجة إلى الاهتمام، بسبب تخوف الأسقف من التعرض للخطية. لذلك يتعين على المتصدر للأسقفية أن يعني بصحة النساء الروحية، وان لم يكن أكثر من عنايته بالرجال فعلى الأقل قدر اهتمامه بهم. لأنه من الضروري أن يفتقدهن في مرضهن ويعاونهن في شدائدهن. وفي مثل هذه المواقف يجد الخبيث مداخل عديدة تستلزم أن يحصن المرء نفسه أمامها بيقظة حارة. فليست العين الفاجرة وحدها بل العفيفة أيضًا قادرة على أن تنفذ إلى أعماق الفكر فتشوشه. والأطراء يوهن العزم، والكرامات تستعبد الإنسان. وحتى المحبة المتقدة التي هي نبع كل خير – تصبح سببًا لعدد لا يحصى من الشرور لمن لا يحسن استخدامها. وإلى جانب كل هذا فان الاهتمامات العديدة تفقد العقل حدته وتثقل الفكر. ومتى انفجر الغضب ثار كالدخان في جوانح الإنسان، وسيطر على إنسانه الداخلي.

﴾ ٩ ﴿

فضلا عن الأذى الناجم عن الحزن والإهانات والشتائم والتقريع من الأكابر والأصاغر من العقلاء والسفهاء – لأن الذي ينقصهم الفكر الصائب مغرمون بالنقد واللوم ولا يقبلون حجة أو عذرًا. لهذا وجب على الأسقف الحكيم ألا يستهين بهؤلاء بل يعني بمعالجة نتائج ما يثيرونه حوله برحابة صدر واتساع، متسامحًا فيما ينسبونه إليه من أخطاء بغير حق، عوض أن يسخط عليهم ويغضب. لأنه إن كان بولس الرسول قد خشى أن يتهمه تلاميذه بالسرقة، من أجل هذا فوض آخرين ممن أؤتمنوا على خدمة المال حتى يتجنب كما يقول {أن يلومنا أحد في جسامة هذه المخدومة منا} (٢كو ٨-٢٠) أفلا ينبغي أن نفعل نحن كل ما نستطيع لنزيل الشكوك الرديئة، حتى وان كانت لا أساس لها وغير معقولة وغريبة عن تفكيرنا؟!. فنحن لسنا بعيدين كلية عن أي خطية بمقدار ما ابتعد بولس الرسول عن السرقة. ورغم بعده البين عن هذه الخطية فانه لم يستهن بظن العالم... فقد كان من الجنون أن يثار شك حول هذا القديس المغبوط، ومع هذا فانه لم يستبعد أسباب هذا الظن رغم لا معقوليته ورغم عدم تصديق أي عاقل له. كما لم يزدر بسخف العامة، ولم يقل في نفسه: من ذا الذي تسول له نفسه أن يشك فينا بعد هذه العجائب التي فعلناها وقوة الاحتمال التي اصطبغت بها حياتنا، وبعد كل هذا التكريم والاحترام الذي لقبناه منكم؟!... لكنه على العكس توقع هذا الشك الحقير واقتلعه من جذوره، أو على الأصح لم يدعه ينمو على الاطلاق... فلماذا فعل هذا؟؟ يقول الرسول: {معتنين بأمور حسنة ليس قدام الرب فقط بل قدام الناس أيضًا} (٢كو ٨: ٢١). فبهذا المقدار من الحماس وأكثر منه ينبغي أن نتصرف لكي نخمد ونمنع الشائعات الرديئة، ويكون لنا بصيرة تجعلنا نتدراكها قبل تفاقمها، فنزيل الأسباب المؤدية إليها ولا ننتظر حتى تثبت وتصير موضوع الأحاديث التي تتناقلها الألسن، لأنه يصعب في تلك الحالة هدمها والخلاص من آثارها بغير أن يلحق ضررها بالكثيرين.

لكن حتى متى أظل أطلب مالا يمكن بلوغه؟ لأن من اراد أن يعدد كل المصائب فكأنما يريد أن يعدد أمواج المحيط. فحتى لو تنزه المرء عن الهوى – وهو أمر مستحيل – من أجل اصلاح ضعفات الآخرين، فهو مضطر إلى احتمال الكثير من البلايا. فاذا اضيفت إلى هذه أيضًا هفواته فكم يحتمل من هم ونكد؟ فكل هذه ينبغي أن يحتملها من يريد أن ينتصر على خطاياه وخطايا تابعيه.

﴾ ١٠ ﴿

باسيليوس: فهل خلوت إذن من المتاعب، أليست لديك الآن هموم وأنت تعيش وحيدًا؟؟

ذهبي الفم: لا شك لدي الكثير من الهموم، لأنه كيف يمكن أن يحيا إنسان هذه الحياة المليئة بالمتاعب والصعاب ثم يخلو من المشاكل والهموم؟.. ولكن كما أن الأمر ليس واحدًا بين من يغوص في لجة لا نهاية لها وبين من يعبر نهرًا، هكذا هو الفرق بين اهتمامات المتوحدين ومتاعبهم وبين سكان العالم. فلو كان في مقدوري أن اعتني بأمور غيري لما توانيت، لأن هذا هو ما أتمناه وأصلي من أجله لكن حيث لا استطيع أن أفعل هذا بل أجاهد لكي أنقذ نفسي من الهلاك فهذا يكفيني.

باسيليوس: أتظن أن هذا أمر عظيم؟ وهل تتصور أنك ستخلص بغير أن تخدم غيرك؟

ذهبي الفم: لقد أحسنت القول، لأني لا أصدق شخصيًا أن الإنسان يمكن أن يخلص إذا لم يسع لأجل خلاص أخيه، وإلا لكان قد انتفع بهذا ذلك الرجل الشقي الذي ورد ذكره في الكتاب المقدس والذي لم يمس ما أعطاه سيده من الوزنات، فهلك لأنه لم يضعها عند الصيارفة حتى تتضاعف لحساب سيده (متى ٢٥: ٢٤-٢٧).

ومع هذا فاني أظن أن حسابي عن تقصيري في خدمة الآخرين يكون اهون مما لو حوكمت عن هلاك نفسي والآخرين بسبب سوء تصرفاتي بعد نوال نعمة الكهنوت. فأنا أثق أن عقابي الآن سيكون على قدر خطاياي. لكم أخشى بعد قبولي هذه الكرامة أن يتضاعف عقابي ليس مرتين أو ثلاثة فحسب بل مرات بعدد من تسببت في أعثارهم. وأي ذنب أفضع من أن استخدم الكرامة التي شرفني بها الله في اغضابه...



فلنفس هذا السبب أدان الرب شعب اسرائيل بشدة، وأبان لهم أنهم كانوا يستحقون عقابًا أشد لأنهم أخطأوا بعد كل ما أغدق عليهم من احسانات... فيقول: {أعاقبكم على جميع ذنوبكم} (عاموس ٣: ٢) ويقول أيضًا: {وأقمت من بينكم أنبياء ومن فتيانكم نذيرين} (عاموس ٢: ١١) وقبل زمان الأنبياء لما أراد الله أن يظهر كيف أن خطايا الكهنة كانت تستحق عقابًا أشد من الشعب، أمر أن يقدم عن الكهنة من القرابين بمقدار ما يقدم عن الشعب كله (لا ٤: ٣-١٤) مما يدل على ان جراح الكهنة تحتاج إلى عناية بمقدار ما تحتاج خطايا الشعب بأسره. وما كان الكهنة يحتاجون إلى هذا كله لو تكن أثقالهم أسوأ. فهي في الحقيقة ليست بطبيعتها سيئة، بل تضاعفت بسبب تجاسرهم على حمل نير الكهنوت بغير استحقاق. وما لي أتكلم عن الكهنة، ان كانت بنات الكهنة اللاتي لا نصيب لهن في الكهنوت – لكن بسبب الكرامة التي نالها آباؤهن يتحملن عقوبات أشد عن مثل الخطايا التي ترتكبها باقي بنات الشعب. فاذا سقطت في الزنى بنات من الفريقين كان عقاب بنات الكهنة أشد قسوة مما تلاقيه بنات الشعب. أفرأيت كيف يقدم الله البراهين العديدة عن شدة العقاب الذي ينزل على الحاكم أكثر من المحكوم؟!... فهو يعاقب ابنة الكاهن اكثر من غيرها بسبب انتمائها إلى أبيها. وسوف يعاقب أباها لهذا السبب عينه عقابًا أقسى من عقاب آباء بنات الشعب، لأن الضرر والخسارة لا تقف عند حد الكاهن وحده بل تشمل نفوس الآخرين من الضعاف وممن يقتدون به. وهذا ما عناه حزقيال النبي في نبواته عن الحكم بين {شاة وشاة. بين كبائش وتيوس} (حز ٣٤: ١٧).



أرأيت كيف أن خوفنا له ما يبرره... ففضلا عما أوردته فاني أحتاج من جانبي إلى كفاح وجهاد حتى لا تغمرني أوجاع النفس، ومع هذا فأنا أحتمل التعب ولا أهرب من القتال. فحتى الآن يستهويني السبح الباطل... لكني كثيرًا ما أرجع إلى نفسي فأرى أني خدعت، وفي مرات أزجر نفسي المستعبدة لهذه الخطية. وحتى الآن تراودني أيضًا شهوات فظيعة، لكن اشتعالها يكون هافتا طالما لا يعلق نظري بوقود يمكن أن يغذي نيران الشهوات. حقيقة أني استرحت تماما من التكلم عن الغير أو سماع النميمة، إذ ليس هناك من أكلمه ولأنه ليس للمحوائط ألسنة حتى تتكلم، ومع هذا فان تحاشي الغضب ليس دائمًا من السهل رغم عدم وجود ما يبعث عليه. فكثيرًا ما يتسبب تذكر الناس المفسدين وأفعالهم الشريرة في اثارة قلبي. ولكن لا يتم هذا بصفة دائمة، فسرعان ما أطفئ لهيب الغضب وأعيد السكينة إلى قلبي مقنعًا نفسي بأنه من غير الملائم ان يتغافل الإنسان عن خطاياه وينشغل بخطايا غيره. فلو أني خالطت الناس واندمجت في مثيرات عديدة، لما تمكنت من الاستفادة من هذه التحذيرات والتأملات الروحية التي تهذب سلوكي. فكما أن من يجرفه تيار عظيم إلى الهاوية يدرك الدمار الذي سينحدر إليه ولا يستطيع أن يفكر في ملجأ يلوذ به، هكذا يكون حالي حين أتخبط بين ضجيج شهواتي وأرى عقابي يزداد كل يوم. أما أن أسيطر على ذاتي كما هو حالي الآن وأزجر مثل تلك الشهوات التي تثور بين جوانحي، فلن يكون أمرًا

سهلا كما كان قبلا لأن نفسي ضعيفة صغيرة سهلة الانقياد، ليس أمام هذه الشهوات فحسب بل أيضًا تجاه الحسد الذي هو أشر الأمراض كلها، كما انها لن تحتمل الإهانات أو الكرامات باعتدال... فالاهانات تكدرها، والكرامات تجعلها تشمخ. وكما أن الوحوش متى كانت في كامل قوتها تغلب من يحاربها، وأما ان أصابها الوهن والضعف وأذلها الجوع فانه يسكن غيظها وتهمد قوتها حتى يسهل ليس للقوى فقط بل للضعيف أيضًا غلبتها – هكذا حال المحاربات الروحية فان من يذلل جسده يمكنه قياد نفسه بحكمة، ومن يسرف في تدليل جسده وتغذيته يصير عراكه معه أشق، فيتمرد جسده ويقضي حياته في خوف ورعب.

فعلام تتغذى هذه الوحوش إذن؟... غذاء السبح الباطل: الكرامات والمديح. وغذاء الكبرياء: امتداد السلطان والنفوذ. وغذاء الحسد: نجاح الجار. وغذاء الشح: سخاء كريم. وغذاء الشهوات الجسدية: الترفه والصحبة الدائمة للنساء. ولكل مرض من الأمراض ما يغذيه. وجميع هذه تهاجمني بشدة ان أنا نزلت إلى العالم، فتمزق نفسي وتحطمها وتجعل معركتي معها أشد صعوبة. بينما لو بقيت هنا في وحدتي لتمكنت من اخضاعها بشدة وبفضل الله يمكن قهرها...

من أجل كل هذا التزم قلايتي. لا أخالط أو أحادث أحدًا واحتمل ملامة مثل هذه... فليس من السهل أن أكون اجتماعيًا وفي الوقت نفسه أضمن سلامتي. لهذا أرجو أن تشمل بعطفك من يواجه هذه الشدة بدلا من أن تبكته.

أما وأني لم أفلح حتى الآن في اقناعك، لذا فقط آن الوقت كي ألقي عليك بسري الخفي. وقد لا يصدقني الكثيرون فيما أقول، ولكن مع ذلك فلن أخجل من اعلان الحقيقة أمام العالم. إذ رغم أن سري هذا يكشف عن ضمير شرير وآثام عديدة إلا أن الله العتيد أن يديننا لا يخفي عليه سر...

ماهو إذن هذا الأمر الذي لم أبح به بعد؟؟

منذ ذلك اليوم الذي ألقيت إلى دعوة الكهنوت، اهتز كياني كله وأصابني الفزع وخيمت على نفسي سحابة من الكآبة. لأنني كلما تفكرت في مجد عروس المسيح وطهارتها وجمالها الروحي وحكمتها ولياقتها، ثم اقارن هذا بما لدي من مناقص فاني أرثي لحالها وحالي. ووسط حزن متصل وحيرة كنت أخاطب نفسي: من الذي أشار بهذا؟ وكيف تخطئ الكنيسة هذا الخطأ العظيم؟ ولماذا تثير غضب الله حتى تقدم الدعوة لي أنا أحقر الناس جميعًا فتعاني عارًا هذا مقداره؟؟ وما زلت أردد هذه الأفكار في نفسي مرارًا، وإذ لم أستطع احتمال فكرة هذا الأمر المخيف استغرقت في ذهول وصمت غير قادر أن أسمع أو أرى شيئا. وحين كانت حالة اليأس هذه تفارقني أحيانا تنساب دموعي ويتملكني قنوط. وبعد فيض من الدموع يستولي على الجزع من جديد ليزعجني ويربكني ويزعزع أفكاري. ووسط هذه الدوامة أمضيت أيامي السالفة وأنت لا تدري عن حالي شيئا، وتظن أني أعيش في سكون وهدوء. إلا أني أود أن أكشف لك القناع عن الأنواء التي اجتاحت نفسي، عساك تصفح عني وتعدل عن اتهامك لي....

فلنفترض أن أبنة ملك العالم كله مخطوبة لإنسان ما، وان هذه العروس قد فاقت بجمالها البارع الطبيعة البشرية... كما أنها سمت بفضائلها الروحية على جنس الرجال الموجودين والذين سيولدون أيضًا، وتفاضلت بحسن أخلاقها إلى حد الخيال... ونفرض أن خطيبها... وهو يهيم بحبها، سمع أن رجلا حقيرًا خسيسًا لا أصل له ومشوه الخلقة، وبالجملة دنيئا سيقترن بعذرائه المحبوبة الجميلة!! فهل نجحت في أن أطلعك على جانب ضئيل مما يكدرني؟...

وسأضرب لك مثالا آخر:

نفرض ان جيشًا مكونا من المشاة والفرسان وقطع البحرية... ولنتصور أنه قد وقف في مقابل هذه الجيوش عدو من البرابرة المتوحشين، ثم بدأت المعركة. ولنتخيل أن أحدهم اختطف صبيًا نشأ في الريف ولا يدري شيئا إلا رعاية الغنم، ثم ألبسه بدلة عسكرية وسلحه بأسلحة نحاسية، وطاف به أرجاء المعسكر وأراه الفصائل وقادتها ورماة القوس والمقاليع وقادة الجيوش وأمراءها والفرسان وخيلها ورماة الرمح والفيالق وآمريها والمراكب الحربية وقد حشد عليها الجند وامتلأت بالعدد

المهيأة للحرب. وأطلعه أيضًا على مخططات العدو الدفاعية ومخازنه المختلفة... وعدد له أهوال الحرب وكوارثها... والدماء التي تسيل أنهارًا وأنين الجرحى وصراخ الأحياء وأشلاء القتلى... والأرض التي لا تراها من كثرة ما عليها من قتلى ودماء ورماح وأسهم وسنابك خيل وأشلاء جند وعجلات عربات حربية وخوذات. ثم عدد له بعد هذا مصائب القوات البحرية واحتراق السفن البحرية وسط الأمواج وغرقها بمن عليها من رجال مسلحين... وامتزاج مياه البحر بدماء الجرحى وملاطمتها للسفن وتناثر جثث القتلى... فإذا أحيط هذا الصبي بكل ويلات الحرب ومصائبه، ناهيك عن ذل الأسر والاستعباد الذي يفوق شره كل أنواع المميتات، ثم أركب حصانا وأطلقت يده في قيادة كل هذا الجيش... أفتظن حقا أن لهذا الفتى قدرة أن يتحمل هذا؟! أم أن يخور ويرتعد هلعًا عند أول نظرة...؟!



﴿ ١٣ ﴾

لا تظن أني قد بالغت وعظمت الأمر فيما صورته، ولا تفترض أنه مادمنا مسجونين داخل هذا الجسد بحيث لا نستطيع ان نعاين شيئا من أمور العالم غير المنظور فقد غالينا في ما ذكرناه. فلو كان ممكنا أن نعاين بهاتين العينين المحسوستين صفوف جند الشيطان المظلمة ومحارباته الشريرة لرأيت حروبًا أعظم وأشنع مما وصفناه. فهذه ليس حربًا على أمور محسوسة مثل عربات حربية وعجلات او نيران او نبال، بل مع أسلحة أشد فتكا. والإنسان في حربه هذه لا يحتاج إلى ملابس أو درع أو سيف أو رمح، إذ يكفي أن يرى المرء هذا الشيطان اللعين حتى تصاب نفسه بشلل ما لم تكن هذه النفس نبيلة للغاية، وأن تحظى إلى جانب شجاعتها بمعونة وافرة من الله. ولو كان في إمكانك أن تخلع هذا الجسم أو حتى تستبقيه على أن تعاين بالعين المجردة بوضوح وغير خوف صفوف جند إبليس ومحاربته ضدنا لكنت ترى ليس أنهار دماء وجثث موتى بل كنت تبصر نفوسًا ساقطة وجروحًا لا تلتئم، حتى لتظن أن كل أهوال الحرب التي سبق أن صورتها لك لا تعدو أن تكون عبث أطفال ولهوًا أكثر من كونها حربًا. وكثيرون يصابون يوميًا في هذه الحرب، ولكن جروح كل من هذين الحربين لا تؤدي إلى موت من نوع واحد. فكما أن الفرق شاسع وكبير بين الجسد والروح هكذا الفرق واسع بين موت كل منهما. فالروح إذا جرحت وسقطت فانها لا ترقد كالجسد الميت بل إنها تتعذب بالضمير الشرير، وبعد انتقالها من هذا العالم في يوم الدينونة فانها تسلم لعذاب أبدي. وإذا كان الإنسان لا يحزن لما يصيبه من جراحات إبليس فما أصعب ما يناله نتيجة عدم إحساسه هذا، لأن من لم يتألم من الجرح الأول فلن ينجو من الإصابة بجرح ثان يليه جرح ثالث... لأن إبليس اللعين لن يكف عن حربه إلى النفس الأخير كلما وجد نفسًا مستلقية متهاونة بما أصابها من جروح. وإذا تساءلت عن فنون حرب إبليس لوجدتها أشد قوة وأكثر تنوعًا، فلن يضارعه أحد في أنواع الحيل والخداع... ولا يمكن لأحد أن يحمل هذا القدر من الكراهية والحقد لألد أعدائه كما يحمل إبليس للبشرية. بل لو أننا تخيرنا أشد الوحوش شراسة وفتكا وقارناه بما لدي إبليس لوجدنا هذا الحيوان أكثر منه لطفا وخضوعًا. فإبليس ينفث حقده وكراهيته عند مهاجمة نفوسنا. كما وان زمان الحرب الحسية يكون قصيرًا ومحدودًا وتتخلله فترات هدنة عند حلول الليل أو التعب من القتال وخلال أوقات الطعام وغير هذه من الأسباب التي من أجلها يمنح الجندي هدنة لكي يتخفف من أسلحته ويلتقط أنفاسه وينعش قواه بالطعام والشراب وما أشبه ليجدد حيويته. أما في حرب الشيطان فلا يمكن للإنسان الذي يريد أن يعيش بلا لوم أن يلقي عنه سلاحه حتى أثناء النوم. وهذا يقتضي أمرًا من اثنين: أما أن يسقط ويهلك بغير سلاح، أو يبقى ساهرًا مدججًا بالسلاح لأن إبليس يقف بصفوفه يترصد غفلتنا باذلا من الجد والحمية لهلاكنا أكثر مما نبذل نحن لخلاص نفوسنا.

ولكونه غير منظور فان مباغتته لنا تسقط غير المستعدين في شرور لا حصر لها، مما يؤكد أن هذه الحرب أشق وأصعب من الحرب الحسية.

أفبعد هذا تريدنا أن نقود جند المسيح؟.. إن هذا يعني قيادتهم لخدمة الشيطان، لأنه إن كان القائد الذي يأمر ويدبر هو أضعف أفراد الجماعة وأقلهم حنكة وتجربة، فانه لعدم اختباره يقود من أؤتمن عليهم إلى طريق إبليس وليس إلى طريق المسيح... فلماذا تتنهد وتبكي؟... فالأمر لا يستوجب النوح بل الفرح والسرور.

باسيليوس: بل أن حالي هو الذي يستوجب النحيب والرثاء، لأني بدأت أدرك إلى أي حد من الشرور قد دفعتني... لأني أتيتك طالبًا معرفة الأعذار التي يمكن ان أبرر بها موقفك أمام من يلومونك، لكنك أخرجتني مهتمًا بأمر آخر، إذ لم يعد يعنيني ما أقدمه عنك من تبريرات بل ما احتج به عن أخطائي أمام الله. لكني أسألك وأرجوك ان كان حقا يهمك امري، وان كانت هناك تعزية في المسيح، او تسلية من أجل المحبة، وإن كانت أحشاء ورأفة (في ٢: ١) فانت دون الجميع قدتني إلى هذا الخطر. فأمدد لي يد العون، وقل وافعل ما تستطيعه من أجل نجاتي، ولا تقسي قلبك فتتركني ولو لحظة واحدة... لأني أصبحت الآن أكثر من أي وقت مضى محتاجًا إلى قربك مني.

ذهبي الفم: فتبسمت وقلت كيف يمكن أن أكون نافعًا لك أو أفيدك إزاء عظم المهام الموضوعة عليك؟... ولكن طالما أن هذا يسرك فتشجع أيها العزيز، لأنه في كل وقت تكون خاليًا من اهتماماتك سآتي إليك مواسيًا دون أن أتوانى عن أي جهد في مقدوري.

فلم سمع ذلك بكى كثيرًا، ثم نهض فعانقته مقبلا رأسه، وشيعته مشجعًا إياه على تحمل رسالته ببسالة... وقلت له: أني أثق في المسيح الذي دعاك وأقامك على رعيته إنك ستكسب من هذه الخدمة دالة أمامه تجعلك قادرًا على أن تقبلني في مسكنك الأبدي ان تعرضت لخطر في اليوم الأخير.